

مكتبة الدراسات التاريخية

طائفة الدروز

تاريخها وعقائدها

الدكتور محمد كامل حسين



دار المعارف بمصر

مكتبة الدراسات التاريخية

طائفة الدروز

تاريخها وعقائدها

تأليف

الدكتور محمد كامل حسين

بكلية الآداب - جامعة القاهرة



دار المعارف بمصر

١٩٦٢

ملزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورفيس النيل - القاهرة ج . ع . م .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

مقدمة

يجرى ذكر الدروز على ألسنة الناس ، ويذهبون في هذه الطائفة مذاهب شتى بينما قل أن نجد بينهم من يعرف شيئاً عن تاريخهم وحقيقة عقائدهم ، وربما نرجع جهل الناس عنهم إلى أن الدروز أنفسهم يحتفظون بعقائدهم الدينية في سرية تامة وكتمان شديد فلا يبيحون بأسرارهم الدينية إلى غيرهم ، بل ربما غالوا هم أنفسهم في ذلك فلا يسمحون بالإدلاء بكل أسرارهم إلا لطبقة خاصة في مجتمعهم . ومنذ وجدت هذه الطائفة والعالم متطلع إلى كشف الستار عنها ومعرفة أسرارها وفلسفة مذاهبها ، ثم تسربت كتبهم إلى خارج مجتمعهم الدرزي واستطاعت بعض مكاتب الدول أن تقتني بعض نسخ من هذه الكتب المقدسة السرية ، وترجمت بعض هذه الكتب إلى اللغات الأوروبية ، ودرسها علماء أجلاء من الغرب ومن أبناء العربية ، على نحو ما سندكره في هذا الكتاب ، ولكن يؤسفني أن أقول إن هؤلاء العلماء لم يستطيعوا أن يلموا إلاماً تاماً بمدلول المصطلحات التي زخرت بها كتب العقيدة الدرزية فلم يوفق هؤلاء العلماء التوفيق الذي كنت أرجوه لهم إزاء جهودهم المحمودة ومثابرتهم على العمل العلمي المشكور ، إذ على الذين يريدون دراسة الدروز وبحث عقائدهم أن يلموا أولاً بالعقائد الفاطمية وتطورها من عصر إلى عصر ومن بلد إلى بلد ، وأن يعرفوا حق المعرفة مصطلحات الدعوة الفاطمية ، لأنها هي العقائد والمصطلحات التي أخذها دعاة العقيدة الدرزية وبنوا عليها عقيدتهم ومصطلحاتهم ، وربما بلغ بي الغلو في القول إلى أن شيوخ الدروز أنفسهم ربما

وجدوا شيئاً من المشقة في فهم فلسفة مذهبهم ومدلول مصطلحاتهم إلا ما كان من ذلك متوارثاً جاءهم عن طريق التواتر ، وما نقله الخلف عن السلف ، وكثيراً ما كان هذا الطريق مشوباً بكثير من التحريف ومن تسرب آراء دخيلة لا أراها في كتبهم المقدسة ولكنها جاءتهم بمرور الزمن من اختلاطهم بأصحاب عقائد أخرى بالرغم من شدة محافظة الدروز على عقيدتهم واستمسكهم بتقاليدهم القديمة ، فدراسة عقيدة الدروز ليست بالدراسة السهلة الهينة بل تكتنفها صعوبات لما يحيط بها من غموض ، وربما كان هذا هو السبب الذي دعا إلى أن يسألني بعض الأصدقاء في أن أضع كتاباً عن الدروز ، وليس بعجيب أن يكون هؤلاء الأصدقاء من الدروز أنفسهم الذين صرحوا لي بأنهم لا يعرفون شيئاً عن عقيدتهم بالرغم مما هم عليه من ثقافة واسعة أهلهم أن يشغلوا مراكز هامة في المجتمع ، وما أنذا أجيب طلبهم وأقدم لهم هذا الكتاب الصغير البسيط الذي يشرح تاريخهم وعقائدهم ، ويبعد عن الأساليب المنمقة التي يعشقها الكتاب الإنشائيون ، ولم أشأ أن أناقش الآراء المذهبية بل عرضتها كما وردت في الكتب المقدسة في إيجاز شديد مع الإلمام بالأصل الذي أخذ منه دعاة الدروز هذه العقائد ، ولكني رأيت أن أجمل رأي الفاطميين في معبود الدروز وفي ألوهيته فنشرت هنا رسالة هامة هي رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم ، وقد سبق أن نشرت الرسالة الواعظة في نبي دعوى ألوهية الحاكم وهما للداعي أحمد حميد الدين الكرمانى الذي عاصر حركة التآليه ، وناقش دعاة المذهب الجديد .

ونسأل الله تعالى أن يهدينا جميعاً إلى الصراط المستقيم .

الباب الأول

تاريخ الدروز

الفصل الأول

لمحة عن أصل الدروز

في محافظة السويداء من الجمهورية السورية حيث جبل حوران الذي يعرف بجبل الدروز أو جبل العرب نجد منطقة واسعة تشتمل على أكثر من ثلاث وسبعين قرية ، وفيها يعيش قوم عيشة متواضعة هادئة يعملون في الزراعة أو الرعي ، ويدينون بالطاعة التامة لشيخ قبائلهم ، في شمال هذه المنطقة نجد قبيلة العوامرة ، وفي الجنوب والشرق يقطن بنو الأطرش ، وفي وسط الإقليم يعيش الحناوية والقلاعنة والحلبية والهنيدية وبنو عساف ؛ وأكثر سكان هذه المنطقة على المذهب الدرزي .

وفي لبنان في القسم الجبلي المعروف بالغرب الأسفل (من الشويفات إلى دير القمر) يسود آل أرسلان ، وفي الغرب الأعلى (من دير القمر إلى عاليه ونهر الغابون) نجد آل تلحوق ، وفي الشحار والمناصف يقيم آل النكدى ، وفي الجرد (من الغرب الأعلى إلى نهر الصفا حيث بلدة بتاثر) يسكن بنو عبد الملك ، وفي العرقوب والباروك نجد بني عماد ، وفي الجرد الشمالى يقطن بنو عيد ، وفي الشوف (من نهر تبدين إلى سطح الجبل) نرى الجانبلاطية ، وهؤلاء جميعاً زعماء وشيوخ الطائفة الهنيدية في لبنان .

وفي فلسطين العربية عند جبل الكرمل وصفد تسكن قبائل عربية مختلفة تتمذهب بالعقيدة الدرزية .

وفي كل هذه البقاع في وسط العالم العربي يعيش الدروز متجمعين في منازلهم بحيث إذا ذكر اسم الدروز يتجه الفكر إلى سكان هذه المناطق ، بينما نجد طائفة من الدروز يسكنون الجبل الأعلى (بين حلب وأنطاكية) ، ونجد في بلاد المغرب بالقرب من مدينة تلمسان قبيلة تعرف ببني عيس تدين بالعقيدة الدرزية دون أن يعرف جيرانهم حقيقة مذهبهم ، ومن يدري لعل الباحثين يكتشفون طوائف أخرى تعتق مذهب الدروز في الأقاليم العربية .

واسم الدروز كان - ولا يزال - مثار مناقشات عديدة بين الكتاب والمؤرخين ، فالمعروف أن هؤلاء الأقوام لا يحبون أن يلقبوا بهذا القب ، ويستنكرون أن ينسبهم أحد إلى الداعي نوشتكين الدرزي الذي سرى أنهم يرمونه بالإلحاد والخروج عن دعوتهم وعقيدتهم ، ويطلقون على أنفسهم اسم « الموحدين » وهو الاسم الذي عرفوا به في كتبهم المقدسة ، فتسميتهم « بالدروز » إذن تسمية خاطئة وكان يجب أن نسميهم بالاسم الذي ورد في شأنهم في كتبهم المقدسة ، ولكن ما حيلتنا بعد أن أصبح اسم الدروز اسم شهرة لهم ، وبهذا الاسم عرفوا في التاريخ قديماً وحديثاً بحيث أصبح الباحث مضطراً إلى أن يطلق عليهم هذا الاسم الخطأ .

وكذلك نجد الكتاب والمؤرخين يذهبون في أصل هذه الطائفة مذاهب شتى ، ففي القرن الثاني عشر للهجرة زار الرحالة اليهودي بنيامين إقليم لبنان ووصف المجتمع الدرزي فذهب إلى أن الدروز سلالة قبائل عربية أنزلها الإمبراطور بمبي لبنان حوالي سنة ٦٤ ق . م ثم اختلطت هذه العناصر بعناصر آرامية ؛ وجاب الشاعر الفرنسي الشهير لامارتين وتحدث عن رحلته هذه بأسلوبه الشعري الممتع وقال عن الدروز إنهم من سلالة الساماريين القدماء ، أما الكاتب لوشان فقد ذهب إلى أن الدروز والموارنة والنصيرية والعلويين واليزيديين والأرمن كلهم من أصل واحد وهم بقايا الحثيين القدماء ، وقال آخرون إن الدروز مزيج من عناصر مختلفة من عرب وفرس وهنود !!!

وهكذا اختلف الكتاب والمؤرخون في أصل الدروز ، فإذا وجد كاتب كلمة فارسية في كتب الدروز المقدسة فعنده أن ذلك يدل على أنهم من الفرس !! وإذا وجد كلمة من أصل آرامي فهم إذن من الآراميين !! والحقيقة أن الباحث

لا يستطيع أن يصل إلى معرفة أصل طائفة من الطوائف إلا إذا كان لديه وثائق تاريخية صحيحة تثبت هذا الأصل ، فاختلاط الشعوب وامتزاجها على طول الزمن يبعد الإنسان عن نسبه الأصلي قليلا أو كثيراً بمقدار اتصال أسرته بغيرها ، ولكن هناك بعض الأسرات تحافظ على نسبها وتثبتها جيلا بعد جيل فيصبح سجل النسب وثيقة تاريخية تعرف منها أصل هذه الأسرة ، كما هو الحال مع آل أرسلان أو آل معن أو آل شهاب أو السادة الأشراف فهؤلاء معروف نسبهم وتسلسله بحيث لا نستطيع أن ننكر أصلهم ، وسنرى أننا نستطيع بفضل تتبع نسب شيوخ الدروز ورؤساء عشائهم أن نقول إنهم عرب ، ولا ندعى ذلك لهم ، بل بذلك يقول التاريخ وتشهد صفاتهم وأخلاقهم .

ومن الغريب أن الخيال لعب دوراً كبيراً عند بعض المؤرخين الفرنسيين في القرن السابع عشر الميلادي الذين أذاعوا خرافة ألبسوها ثوب الحقيقة ، وأشاعوها في بلدان أوروبا ، فقد زعموا أن الدروز هم سلالة الجنود الفرنسيين الصليبيين الذين كانوا تحت قيادة الكونت دي دروكس الذي أسكنهم جبال لبنان بعد سقوط عكا !!! فكلمة الدروز هي تحريف دي دروكس ، !!! وامتد بهم خيالهم إلى أن الأمير فخر الدين بن معن هو حفيد القائد الصليبي جودفري !!! ، والذين يعرفون مطامع فرنسا في بلاد الشام يدركون السبب الذي من أجله أذاعوا هذه الخرافة ليتجنبوا إلى الدروز رجال الحرب الممتازين ، وقد نسي المؤرخون الفرنسيون أن هذه القبائل التي اعتنقت عقيدة الدروز كانوا يسكنون هذه المنطقة من لبنان وحواران ووادي التيم قبل أن تبدأ الحروب الصليبية بأكثر من ثلاثة قرون ، وربما أراد المؤرخون الفرنسيون أن عدداً كبيراً من جنودهم كانوا أسرى عند الدروز فاتخذهم الدروز عبيداً لهم ، كما اتخذوا النساء الفرنسيات إماء وسبايا !!!

ومن الطريف أن الإنجليز أرادوا بدورهم أن يقاوموا النفوذ الفرنسي في بلاد الشام فأذاعوا في القرن الثامن عشر للميلاد قصة تقول إن الدروز من أصل إنجليزي أي هم سلالة الجنود الإنجليز الذين صاحبوا ريتشارد وغيره من ملوك الإنجليز الذين أسهموا في الحروب الصليبية ، وليس لنا إلا أن نمر على مثل هذه الروايات ساخرين من هذه العقليات الاستعمارية التي تريد قلب الحقائق التاريخية في سبيل تحقيق

مطامع الاستعمار . أما نحن فنذهب إلى تحقيق أصل الدروز عن طريق دراسة القبائل التي يتكون منها المجتمع الدرزي ، فالمؤرخون جميعاً على اختلاف مذاهبهم وأجناسهم يجمعون على أن العقيدة الدرزية أول ما ظهرت في بلاد الشام إنما ظهرت في المنطقة المعروفة بوادي التيم (بين دمشق وبانياس) وكان ذلك في سنة ٤٠٨ هـ . وقد سمي هذا الوادي بذلك الاسم نسبة إلى قبائل تنتسب إلى تيم الله بن ثعلبة وهي قبائل يمنية الأصل هاجرت من الجزيرة العربية في الجاهلية وسكنوا الفرات وكان منهم ملوك المناذرة أصحاب الحيرة ، والتاريخ يسجل لهم حوادث معروفة في هذه الأيام ، وهاجر بعض بطون هذه القبائل إلى منطقة حلب حيث استقروا في بلاد المعرة وسادوا هذه المنطقة ، وفي عهد الفتوحات الإسلامية الكبرى أسهم بعضهم في فتح الشام ، واستقرت بعض بطونهم في هذا الوادي الذي سموه باسمهم ، وجاء بعضهم إلى مصر مع جيش عمرو بن العاص ونزلوا الإسكندرية وما يعرف الآن بمديرية البحيرة ، وفي عهد معاوية بن أبي سفيان قاموا بنصره وحاربوا معه في معركة صفين وأبلوا بلاء حسناً فجعلهم معاوية سادة في المناطق التي حلوا بها وأصبحوا أمراءها وأصحاب إقطاعها ، واشتركوا مع الأمويين في حروبهم ضد الروم ، ولكن عند ما ظهرت حركة العباسيين ، انضموا لدعوتهم واشتركوا في معركة الزاب ضد مروان بن محمد . وبذلك أصبحت لهم يد عند العباسيين وأقروهم على ما بيدهم من الإمارات ، ولما قدم الخليفة أبو جعفر المنصور العباسي إلى دمشق وفد عليه أمراء بلاد المعرة ، فقرّبهم إليه وطلب إليهم أن تنزع بعض بطون قبائلهم إلى لبنان لحماية السواحل من بغتات الروم وتأمين طرق المواصلات من بعض السكان هناك الذين عرفوا بالمردة اعتادوا نهب القوافل والإغارة على القرى والمدن ومساعدة الروم في حرب المسلمين ، فصعد اثنان من زعماء القبيلة هما الأمير المنذر بن مالك وأخوه الأمير أرسلان لطلب الخليفة ورحلا بمجموعهما سنة ١٤٢ هـ إلى جبال لبنان بعد أن أقاموا عدة أيام في وادي التيم حيث كان يتزل بنو عمومتهم ، وتفرقت هذه الجموع العربية في جبال لبنان ، وكانت لهم مواقع مع المردة كان الانتصار فيها للعرب ، فذاع أمرهم وقوى شأنهم وأقرهم الخلفاء العباسيون على إمارة هذه الأقاليم التي صارت إقطاعات لهم ، وسمع بنو عمومتهم بما صاروا إليه من إمارة ونعيم في

الحياة فهاجروا إليهم وتكاثر عددهم حتى أصبحوا قوة لها شأنها في حفظ هذه البلاد من هجمات الروم ، كما أن منطقة حوران اقتسم إمارتها بنو شهاب القرشيون والأمراء التنوخيون ، واستمرت هجرة القبائل العربية إلى لبنان وحوران ووادي التيم ووسعت كل قبيلة فيها إلى بني أبيها حتى اشتدت شوكة هذه القبائل في تلك البقاع وكان العباسيون يطلبون مساعدتهم كلما ثار بلد ضدهم ، فثلا في ثورة مصر ضد المأمون العباسي طلب من الأمير مسعود الأرسلائي أحد الأمراء بلبنان أن يأتي معه بفرسان لمساعدته في إخماد الثورة فلما عاد الخليفة من مصر ولاء إقليم صفد ومقاطعاتها واستمروا ولاء لمقاطعاتهم إلى أن كانت سنة ٣٥٨ هـ. إذ قامت جيوش المعز لدين الله الفاطمي بقيادة جعفر بن فلاح لفتح بلاد الشام وبعد أن استولى على الرملة وطبرية كتب إلى الأمير سيف الدولة المنذر بن النعمان بن عامر أمير بيروت يدعوه إلى بيعه المعز ، فاستشار سيف الدولة عشيرته ، فأجمعوا على مصانعته حتى يروا ما يكون منه ، فلما استولى جعفر بن فلاح على دمشق ، سار إليه سيف الدولة وزعماء قومه وبايعوه للمعز لدين الله وبذلك دخلت هذه القبائل في الدعوة الفاطمية ، ولما قامت حركة افتكين التركي بدمشق وأخرج عامل الفاطميين منها ، واتصل القرامطة بافتكين ، يساعدونه ضد الفاطميين انقسم أمراء العرب بين موالين للفاطميين وبين موالين للقرامطة وافتكين .

على أننا نتساءل عن مدى علاقة هذه القبائل العربية بالدعوة الفاطمية في ودور الستر أي قبل تأسيس الدولة الفاطمية ببلاد المغرب سنة ٢٩٧ هـ . حينما كانت سلمية بالقرب من حماة مركز هذه الدعوة السرية وعن علاقة هذه القبائل بحركة القرامطة في الشام ، والجواب على هذين السؤالين شاق عسير لا سبيل إليه لعدم وجود نصوص يعتمد عليها في ذلك ، بل قل إن المؤرخين لم يذكروا شيئاً عن هذه العلاقة ، وكل ما وصلنا إليه من ذلك كله أن القرامطة حاولوا الاستيلاء على إقليم حوران سنة ٨٩٥ م فالتقى بهم الأمير سعيد بن عامر أمير المقاطعة وهزم القرامطة هزيمة منكرة ، ومن يدري لعل بعض أهالي هذا الإقليم استجاب للقرامطة أو للدعوة الفاطمية دون أن يشير إلى ذلك أحد من المؤرخين ، وربما كانت العلاقة وثيقة بين بعض سكان وادي التيم وبين القرامطة لأن من العقائد الدرزية أن المعبود أظهر

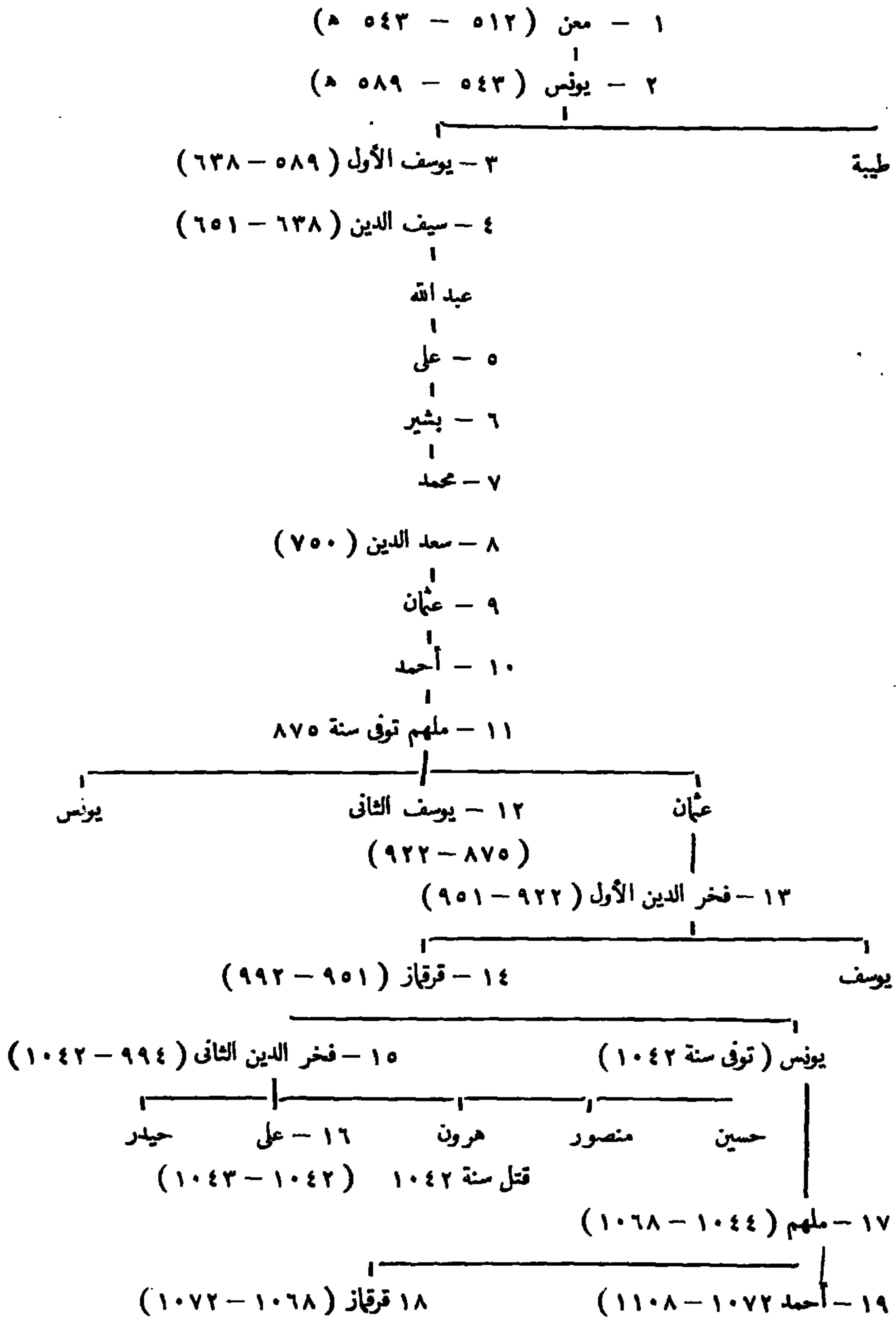
فأسوته في شخصية زكرويه بن مهرويه زعيم القرامطة ، وربما قيلت هذه العقيدة الدرزية لتحجيب أتباع زكرويه في العقيدة الدرزية فاستجابوا لها بسهولة ولا يزال الدروز إلى الآن يطلقون لقب قرمطى على كل رجل زاهد متعبد .

ومهما يكن من شيء فإن الدعوة الفاطمية انتشرت في جميع بلاد الشام بفضل الدعاية المنظمة التي وضع الفاطميون أسسها ، وكانت قبائل تنوخ في بلاد المعرة وفي وادي التيم وجبال لبنان أسرع أهالي الشام قبولا للدعوة الفاطمية وبالرغم من وجود بعض حركات ثورية في الشام كان الغرض منها الرجوع إلى الدعوة العباسية فإن كل هذه الحركات باءت بالإخفاق إلى أن جاء الحاكم بأمر الله وأعلن مذهبه الجديد ؛ فكان أهل وادي التيم وحموران وجبال لبنان هم الذين تقبوا هذه العقيدة وظلوا يحافظون عليها إلى الآن . وبالرغم من تمذهبهم بهذه العقيدة فقد ظلوا في مقاطعاتهم تحت إمرة شيوخهم الذين هم بدورهم كانوا يتبعون الولاة في دمشق وعكا وبيروت دون أن يحول مذهبهم الديني عن القيام بأعمال بطولة خارقة مع إخوانهم المسلمين في الحروب الصليبية ، فأبان الحروب الصليبية كان إقطاعات الدروز في لبنان في يد أسرتين التنوخيين والأرسلانيين ، أما في وادي التيم وحموران فكان إقطاع الدروز في يد بني شهاب ، وكان الصليبيون يعملون لإنشاء دولة لاتينية على ساحل البحر الأبيض تتسع في الشمال وتضيق حتى جبل الدروز ، فكان لابد للدروز في سوريا ولبنان وفلسطين من الدفاع عن بلادهم أمام الغزو الخارجي ولا سيما أن المسلمين - وقد عهدوا فيهم المقدرة الحربية - طلبوا إليهم العمل على سلامة الساحل ، فحارب الدروز مع المسلمين فزاهم مثلاً يقومون بالهجوم على قلعة الشقيف وقلعة القرين في منطقة الجليل ، وفي سنة ١١٥١ م هزم الدروز بقيادة الأمير أبي العشائر بختر الأرسلاني جيوش الصليبيين في موقعة رأس التينة ، وفي سنة ١١٨٦ م في عهد صلاح الدين تولى الأمير جمال الدين حجي التنوخي إقليم الغرب بجبال لبنان وفي القرن السادس للهجرة ظهرت أسرة معن في إقليم الشوف بلبنان وتحالفوا مع التنوخيين ، واتخذوا بلدة بعقلين مقراً لهم ولا تزال هذه البلدة المقر الروحي لشيخ عقال الدروز في لبنان ، ثم صاهروا الشهابيين في وادي التيم ولما جاء التتار للاستيلاء على الشام وقامت الجيوش المصرية للدفاع عن العرب

والمسلمين انضم الأمير زين الدين صالح الأرسلافي لجيوش السلطان قطز وحاربوا التتار في موقعة عين جالوت الخالدة ، كما حارب الشهابيون في وادي التيم التتار ولكنهم هزموا واضطر الشهابيون إلى اللجوء إلى أصهارهم بني معن في الشوف ، واستمر الدروز يساعدون المماليك ضد الصليبيين وضد التتار حتى تم النصر لهم ، وكان المماليك يقرون أمراءهم على إقطاعاتهم ويهدون إليهم الهدايا تودداً لهم ، ولعل موقفهم مع الظاهر برقوق وحروبهم معه ضد التركمانية والفرنجة توضح لنا سياسة الدروز في كل عصورهم وهي سياسة عربية إسلامية قبل كل شيء .

وفي سنة ١٥١٦ م . قام السلطان سليم الأول العثماني بغزو الشام ومصر ، وانضم إليه آل معن برجالهم من الدروز ، فاعترف العثمانيون لهم بالإمارة في لبنان وازداد نفوذهم حتى إن المنطقة الجبلية التي كانوا يسكنونها تعرف بجبل بيت معن ، واتسع نفوذ هذه الأسرة في عهد الأمير فخر الدين بن معن الثاني (١٥٨٥ - ١٦٣٥ م) حتى سيطروا على معظم أرجاء الشام ، فكان سلطانهم يمتد من ساحل أنطاكية إلى شمال صفد في الجنوب مع جزء كبير من صحراء سوريا ومنها قلعة تدمر ، ويظهر أن الأمير فخر الدين شعر بقوة واتساع ملكه فشاء أن يتمتع بشيء من الاستقلال في العلاقات الخارجية دون أن يستأذن الباب العالي في أمر هذه السياسة ، فقد كان يتمتع بالاستقلال الداخلي ، فلماذا لا يستقل استقلالاً تاماً عن الدولة العلية ، ففي سنة ١٦٠٨ م عقد معاهدة تجارية مع الدوق فرديناند الأول أمير توسكانيا ، ويظهر أنه كان بالمعاهدة بعض نصوص حربية سرية ، الأمر الذي أغضب السلطان العثماني الذي أرسل قوة حربية لتأديبه فاضطر سنة ١٦١٤ م . إلى الهروب من البلاد والتجأ إلى صديقه أمير توسكانيا ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الأمير فخر الدين بن معين الثاني هو أول أمراء لبنان الذين فتحوا بلادهم ، لي النفوذ الغربي ، ففي عهده سمح للفرنسيين بفتح خان في مدينة صيدا ، وأقامت فلورنسا قنصلية لها في البلاد وسمح للمبشرين الأوروبيين بالتبشير بالمسيحية بين المسلمين والدروز ، وهنا نأتي بثبت بأسماء أمراء آل معن الدروز ولالة لبنان نقلا عن جداول المستشرق زامباور وكتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان للشدياق .

ولذلك



هؤلاء هم أفراد أسرة معن الشهيرة في تاريخ لبنان ، ونستطيع أن نعرف أن الإمارة استمرت في هذه الأسرة حوالي ستة قرون لم تخرج عنهم وذلك بفضل

ما امتازوا به من شجاعة وبسالة واتخاذهم من الجبال حصوناً لهم ضد أعدائهم ، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يكونوا لهم دولة على غرار الدول الإسماعيلية التي عرفها التاريخ العربي ، ولم يكونوا مستقلين تماماً ، بل كانوا يؤدون الأموال إلى الباب العالي بالآستانة ، فكأنهم كانوا يدينون إلى السلطان العثماني بلون من ألوان الولاء إذ كانوا تبعاً لوالى عكا ، حقيقة كانت طائفة الدروز يخضعون لإمرة مشايخهم خضوعاً تاماً ولا يعترفون بسلطة هؤلاء الشيوخ ، ولكنهم كانوا دائماً مع الوالى ينتصرون له ، ويحاربون هذا الوالى إذا شعروا منه بظلم يحق بهم ، هذه هي السياسة التي عاش عليها الدروز في لبنان أو في حوران ، وتاريخهم كله ينحصر في هذه السياسة وهي موالاة الولاة إذا لم يتدخلوا في شئونهم .

وبنو معن صاهروا بني شهاب الذين لهم أثر كبير في تاريخ الدروز ، وبنو شهاب أسرة قرشية معروف نسبها القرشي لأبيهم وأمهم ، وكانوا أصحاب إقطاع ولاية حوران ، وكان نور الدين زنكي يستعين بأتباعهم دروز حوران في حروبه ضد الصليبيين وفي أواخر القرن السادس للهجرة هاجر الأمير منقذ الشهابي إلى وادي التيم واتخذ مدينة حصيبة مقراً له ، وارتبطت أسرة شهاب بأسرة معن برباط النسب إذ تزوج الأمير يوسف الأول (٥٨٩ - ٦٣٨) بسعدة بنت الأمير منقذ الشهابي كما زوج أخته طيبة من الأمير محمد بن منقذ ، وفي القرن السابع للهجرة تزوج الأمير علي بن عبد الله المعني من ابنة الأمير عامر الشهابي ، وفي القرن الثامن للهجرة تزوج الأمير عثمان بن سعد الدين المعني من ابنة أبي بكر بن حسين الشهابي ، وبعد وفاة آخر شيوخ معن الدروز سنة ١١٣٩ هـ حلت الأسرة الشهابية محلها في إمارة لبنان وكان أول من ولي هذه الإمارة من الشهابيين هو بشير الشهابي الأول ، ولكن الشهابيين لم يظهروا درزيتهم بالرغم من ارتباط تاريخ الدروز بهم ، ففي عهد المعنيين قامت في لبنان حروب داخلية بين القبائل القيسية واليمانية ، وكان المعنيون لا يأبهون بهذه الحروب بل وقفوا من الحزبين موقف المتفرج ، وانقسم الدروز بين الحزبين فكانوا يتخذون حوران ووادي التيم ملجأ لهم كلما انهزموا أما في عهد الشهابيين فقد انضموا إلى القيسية وبفضل وجود بني شهاب انقضت الفتن بين القيسية واليمانية . ولكن قامت فن أخرى بين الدروز والمارونيين استمرت

حتى سنة ١٨٦٠ م ، كما انقسمت طائفة الدروز بين مشيختين كبيرتين هما الجانبلاطية واليزبكية ، ولذلك جدير بنا أن نتحدث عن هذه الأسرات الدرزية في لبنان التي لها شأن في تاريخ الدروز ، ونلاحظ أننا سنقف عند تاريخهم إلى منتصف القرن التاسع عشر للميلاد إذ ألغى نظام الإقطاع في لبنان وسوريا وأصبح للدروز ما لغيرهم من المواطنين وصار تاريخهم هو تاريخ بلدهم .

الجانبلاطية

عائلة من مشايخ الدروز في لبنان قيل إنهم ينتسبون إلى جانبلاط بن سعيد ابن مصطفى بن حسين بن جانبلاط بن قاسم ، أتى جانبلاط بن سعيد بولده رباح من حلب إلى بيروت إلى آل آل معن للصدقة التي كانت بين الأسرتين فقدم إليه أكابر جبل لبنان ودعوه إلى الإقامة في بلادهم فأبى وأقام في الشوف وكان الأمير فخر الدين يعتمد عليه في المهمات وفي سنة ١٦٣١ أرسله فخر الدين إلى قلعة شقيف أرنون للمحافظة عليها خوفاً من الأمير طربيه بن علي الحارثي أمير اللجون فأقام هناك سنتين وتوفي سنة ١٦٤٠ ، وخلف ابنه رباح ثلاثة أولاد علي وفارس وشرف الدين وتزوج ابنه علي بابنة الشيخ قبلان القاضي التنوخي كبير مشايخ الشوف ثم انتقل إلى بعلبران ، وتوفي الشيخ قبلان سنة ١٧١٢ دون أن ينجب ولداً فاتفق أهالي الشوف على أن يولي المشيخة علي ووافق الأمير حيدر الشهابي على ذلك فولى مقاطعات الشوف فأحسن إلى الناس فأحبوه حتى صار شيخ المشايخ ، وفي سنة ١٧٧٧ أحدث الأمير يوسف الشهابي مالا على البلاد فثار الناس وطلبوا من الشيخ علي أن ياتمس من الأمير يوسف إبطال ذلك فلم يجبه الأمير فدفع على المال من جيبه الخاص فازدادت محبة الناس له وتعلقوا به فخاف الأمير يوسف جانبه فأوقع الفتنة بينه وبين الشيخ عبد السلام العماد وجمع كل منهما حزبه فانقسمت البلاد إلى قسمين قسم تحزب للشيخ علي فعرفوا بالجانبلاطية وقسم إلى عبد السلام عرفوا باليزبكية . ولكنهما اصطلحا سنة ١٧٧٨ .

وتوفي الشيخ على سنة ١٧٧٨ في بعذران وعمره ٧٨ سنة وترك ستة أولاد يونس وجانبلات ونجم ومحمود وقاسم وحسين ، وتولى المشيخة بعده ابنه قاسم وسكن قرية المختارة بالشوف ، وفي سنة ١٧٨٠ وفد عليه الأمير سيد أحمد فاراً من أخيه الأمير يوسف فأجاره الشيخ قاسم واتحد مع عبد السلام العماد على خلع الأمير يوسف وإقامة أخيه سيد أحمد في ولايته ، ففر الأمير يوسف إلى عكا واستغاث بوالها الحزار باشا الذي أرسل معه جيشاً كثيفاً فهرب الجنبلاطية إلى جبل عامل ، وعاد الأمير يوسف لينتقم من أهالي الشوف ويدهر أملاك الجنبلاطية ويصادر أموالهم ، ولما تولى الأمير سيد أحمد الشهابي البقاع انضم إليه الجنبلاطية وأرادوا المقام عنده في قلعة قب الياس ولكنه أظهر لهم الجفاء فانتهر الأمير يوسف هذه الفرصة وهاجمهم وانتصر عليهم فهاجروا إلى حاصبيا وفي سنة ١٧٩٠ تولى الأمير حيدر والأمير قعدان الشهابيان وفر منها الأمير بشير عمر الوالي إلى صيدا واصطحب معه المشايخ الجنبلاطية فصار الشيخ قاسم الجنبلاطي وبشير الشهابي على رأس جيش الحزار باشا . وفي سنة ١٧٩١ أرسل الحزار قاسم الجنبلاطي لجمع المال من الأهالي ولكن بشير بن قاسم الجنبلاطي وقف في وجه العساكر التركية وحاربهم إلى أن هزمهم وأعادهم إلى صيدا وتوفي الشيخ قاسم سنة ١٧٩١ فاختر الدروز ولده بشير الذي لقب بعد ذلك بعمود السماء ليتولى المشيخة بعد أبيه ولكن في سنة ١٧٩٣ وقعت فتنة بين الجنبلاطيين والأمراء الشهابيين أدت إلى أن يرحل الجنبلاطيون إلى وادي التيم (حوران) وخربت دورهم في بعذران . ثم تحسنت علاقتهم بالوالي الحزار باشا فأرسل الشيخ بشيرا مع جيش قوى إلى الشوف فأسرع اليزبكية والنكدية لحربهم في بعقلين .

وفي سنة ١٧٩٨ تولى الأمير بشير الشهابي الولاية وكان الشيخ بشير الجنبلاطي مشيره ويده اليمنى حتى قيل إنه ساعد الموارنة مساعدة قيمة جعلت البابا يرسل إليه يشكره .

وفي سنة ١٨٦٠ قام الشيخ بشير برجاله الدروز لمساعدة والي عكا سليمان باشا في طرد يوسف باشا الكردي والي دمشق فلما انتصرت جيوشه ازدادت مهابته في النفوس واتسع نفوذه حتى إن دروز الجبل الأعلى بحلب استغاثوا به سنة ١٨١١

من ظلم والى حلب فأرسل إليهم أن يهاجروا إليه ومنحهم الأراضي في المتن وغربي البقاع وغيرهما من المقاطعات الدرزية .

وفي سنة ١٨١٤ بنى في قرية المختارة جامعاً جميلاً لإقامة الصلوات الخمس ولكنه اتهم سنة ١٨١٨ بالمساعدة على قتل أميرين من الأمراء الشهابيين مما جعل الأمير بشير يقوى اليزبكية ضد الجنبلاطية ، وفي سنة ١٨٢٢ ساعد عسكر عبد الله باشا في حروبه مع درويش باشا والى دمشق .

ثم حدث شقاق بين الأمير بشير الشهابي والشيخ بشير الجنبلاطى أدى إلى حروب طويلة بين الدروز والولاة أدت إلى هربه إلى عكا ثم القبض عليه وقتله سنة ١٨٣٥ . وتبع الأمير بشير الشهابي الجنبلاطية فهدم دورهم وصادر أموالهم .

ولما قدم إبراهيم باشا سنة ١٨٣٢ وانضم إليه الأمير بشير الشهابي ووقف أولاد الشيخ بشير الجنبلاطى على الحياد في أول الأمر ثم ذهبوا إلى والى دمشق ثم توجهوا إلى عساكر السلطان في حمص ولكن هزمت جيوش السلطان سنة ١٨٣٣ في موقعة حمص فاخْتَبَأ سعيد وإسماعيل (ابنا بشير الجنبلاطى) في الجبل الأعلى .

غير أنهما اضطرا إلى طلب عفو الأمير بشير الذى سيرهما إلى القاهرة ، ودخل سعيد خدمة جيش محمد على برتبة ملازم ثم رقى إلى رتبة يوزباشى ثم إلى بيكباشى ، وحضر أخوه نعمان إلى مصر وأنعم عليه محمد على بنيشان وجعله « أميرالاي » . وفي سنة ١٨٤٠ قدم عزت باشا سر عسكر العثمانيين إلى بيروت ومعه الأسطول الإفرنجى فحضر نعمان بك ببعض رجاله للانضمام إليه فأنعم عليه عزت باشا برتبة أبيه « شيخ المشايخ » فلما علم أخوه سعيد بذلك أمر رجاله بالهروب من جيش محمد على إلى البقاع حيث تجمع له عدد كبير من الدروز وسار مع الأمير بشير ملحم لطرده إبراهيم باشا ، وتجمع الدروز الجنبلاطية بعد ذلك واستولوا على المقاطعات التى كانت لهم من قبل .

وفي سنة ١٨٤١ حدثت فتنة بين أهل دير القمر وبعقلين استطاع سعيد بك أن يخمدها ثم قامت الحروب بين الدروز والموارنة بالدير وقاد سعيد بك الدروز وهزم الموارنة . وفي سنة ١٨٤٢ تنازل نعمان بك عن المقاطعة واعتزل إلى عبي فتولى سعيد بك أمر الدروز ولكن حدث أن أمر مصطفى باشا الوالى بالقبض على زعماء

الدروز فأحضرهم إلى بيت الدين وقبض على سعيد بك ونعمان بك وغيرهما وسجنوا في بيروت ولكن جاء شلبي العريان مع دروز حوران وقرى الشام فخاف الوالى أن يدخل معهم في حرب فأطلق سراح سعيد بك ولكن الدروز أبوا إلا الحرب ، واتفق سعيد بك مع الأمير أمين أرسلان على إعادة النازحين عن البلاد حتى تهدأ الفتنة فسافر الأمير أمين أرسلان إلى الآستانة وعاد معه الأمر بعودة الدروز إلى بلادهم وإطلاق سراح المعتقلين منهم ، وجعل الأمير أمين أرسلان قائمقام للدروز وعاونهُ سعيد بك لتنظيم البلاد .

ونسبت إليه المشاركة في حوادث سنة ١٨٦٠ فقبض عليه هو وعدد من كبار رجال الدروز في الجبل وقدم للمحاكمة ولكنه توفي سنة ١٨٦١ قبل إتمام التحقيق .

اليزبكية - ١ - أسرة تلحوق

عائلة من المشايخ الدروز في لبنان ينسبون إلى قبيلة من العرب تعرف ببني عزام من قبائل أزد عمان القيسية أتوا مع الأمير معن إلى الشام ثم استدعاهم الأمير عامر الشهابي إلى حوران فأقاموا هناك ثم انتقلوا إلى وادي التيم ومنها انتقلوا إلى بيروت سنة ١١٤٤ م لفتنة حدثت بينهم وبين الشهابيين ، وحدثت حروب بينهم وبين بني الحمراء في بيروت اضطروا بعدها إلى الانتقال إلى غرب كفر شيا وعمروها . ثم دهمهم أمراء آل جمال الدين التنوخيون فقتل أفراد الأسرة ولم يبق منهم سوى أحمد الذي استقر في عيثات وما زال يطلب الانتقام من اليمنية كلما سمع بواحد منهم ثم جاء حفيده شاهين إلى بيروت فانتقم منه اليمنية وقتلوه فقام ولداه محمد وبشير وانتقما من قتلة أبيهما ويقال إنهما قتلا زهاء ٢٧٠ نفساً .

وفي ولاية فخر الدين بن معن أرسل الشيخ محمد التلحوقي إلى الآستانة لطلب سنجقية إربد وعجلون لولده الأمير حسين بن فخر الدين فأجيب إلى طلبه على أن يكون الشيخ محمد نائباً عنه وفي سنة ١٧١١ فر الأمير حيدر الشهابي الوالى من جيوش محمود باشا فتبعه الشيخ محمود وولده شاهين ووقعت معركة غزير واستبسل

الدروز حتى هزموا جيوش محمود باشا وسار حيدر الشهابي إلى الهرمل ومعه الشيخ محمد وابنه إلى أن عاد حيدر إلى ولايته فترع ولاية الغرب الأعلى من الأمير يوسف أرسلان لأنه يمني وأقطعه الشيخ محمد ، وتولى المشيخة بعده ابنه شاهين .

وفي سنة ١٨٣٠ كان الأمير بشير عمر يحاصر قلعة سانور واجتمع أهل ناباس في قرية عجة فأغار عليهم الشيخ حسين والشيخ فارس من التلاحقة ومعهم الشيخ ناصف النكدى وهزمهم وبعثوا بالأسرى إلى الأمير بشير . وفي سنة ١٨٤٠ قتل إبراهيم باشا الشيخ ظاهر حمد بتهمة اشتراكه في الثورة ضده ، وفي سنة ١٨٤٤ ، جرد الأمير حيدر جيشاً لمحاربة الدروز بعاليه فقابلهم الشيخ محمود وأخوه الشيخ ناصيف وهزموا جيش الوالى وانضم إليهم المشايخ وهربوا إلى الوادى وهذه الأسرة تسكن الآن عيئات وبيصور وعاليه ورأس بيروت .

وكانوا يتولون إقطاع الغرب الأعلى إلى أن نزلت الإقطاعات سنة ١٨٦٠ ، ومنهم من تولى مناصب هامة مثل سعيد بك بن الشيخ فاعور الذى تولى قائمقامية جبل الدروز فى حوران ثم قائمقام راشيا من وادى التيم .

النكدية

ينتسب شيوخ النكدية إلى إحدى القبائل العدنانية التى كانت تسكن الحجاز فى الجاهلية ، وخرجت القبيلة مع جيش الفتح فى عهد أبى بكر الصديق ، واستقرت بمصر بعد أن حررها العرب من الروم ، ولكن سرعان ما لبوا نداء الجهاد فسارت بطون منهم إلى إفريقية وبلاد المغرب (مراكش) واستقرت هذه البطون هناك وعرفوا بمراكش بنى نكد ، وكانوا من أنصار الفاطميين عند ما قامت دولتهم بشمال أفريقيا وجاء بعضهم مع الجيش الذى فتح مصر وبلاد الشام ، واستقروا بمنطقة حلب ، وفى سنة ٥١٤ هـ . (١١٢٠ م) وفد عدد منهم إلى منطقة الشوف بלבنا واصلوا بالأمير معن وصاروا من أعوانه وفى أوائل القرن الثانى عشر للهجرة (الثامن عشر الميلادى) آل أمر لبنا إلى حيدر الشهابى فقرب الشيوخ النكدية إليه وجعلهم من أخصائه بحيث إن النكدية برياسة زعيمهم الشيخ على حاربوا بجانب الأمير الشهابى

جيش الوالى العثمانى محمود باشا أبى هرموش فى موقعة غزير ، وساروا معه إلى الهرمل وحضروا معه واقعة عين دارة ، ولذلك أقطعه الأمير الشهابى الناعمة وما يليها ولقبه بالأخ العزيز ، ولكن فى ولاية الأمير ملحم الشهابى حدث ما جعل الأمير يوقع الفتنة بين شيوخ النكدية فقامت بين بنى الأعمام النكديين حروب أدت إلى أن يأمر الوالى بإخراج النكديين من البلاد وأن يحرق منازلهم بعد هدمها ، ولكن أمير حاصبيا توسط لهم لدى الأمير حتى عفا عنهم وأمر بإعادتهم إلى دير القمر وعمر ما هدم لهم ، ولكن فى سنة ١١٧٧ هـ (١٧٦٤ م) عاد شيوخ النكديين إلى الانشقاق ومحاربة بعضهم بعضاً وأخرجهم الوالى أيضاً من دير القمر فساروا إلى وادى التيم وظلوا هناك حتى صفح الأمير عنهم فعادوا إلى مقرهم ، ثم استعان بهم الوالى يوسف الشهابى سنة ١٧٧٥ م فى حرب الجزائر باشا الوالى العثمانى ، ولكنهم هزموا فى هذه المعركة وأسر فى المعركة شيخان من النكديين هما الشيخ محمود بن أبى فاعور والشيخ واكد كليب ، وغضب النكدية على الأمير الشهابى لأنه لم يعمل على إطلاق سراح الأسيرين واتفقوا مع الجنبلاطية على خلع الأمير يوسف الشهابى وتولية أخويه الأمير سيد أحمد والأمير أفندى ، وجاء جيش الوالى الجزائر لقمع الفتنة فهزمه النكديون فى معركة نهر الحمام ، وتوالت المعارك بين النكديين وجيوش العثمانيين إلى أن كانت سنة ١٨١٩ اتفق المشايخ اليزبكية والنكدية فغضب الأمير بشير الشهابى لذلك فخشى اليزبكية والنكدية غضبة الأمير فتركوا بلادهم وتجهلوا فى بلاد الشام دون أن يستقروا فى بلد ما وأخيراً أرادوا النزول فى عكا فرفض واليها عبد الله باشا كما أن الأمير بشير أرسل إليهم قوة هزمتها اليزبكية والنكديون شرقى البقاع . ثم قام الدروز جميعاً بنصرة العثمانيين ضد ظلم حكومة إبراهيم باشا بن محمد على باشا سنة ١٨٣٩ م ، وانتقاماً من الأمير بشير الشهابى فقبض على كثير من زعماء دروز لبنان وأرسلوا إلى مصر فنفاهم محمد على إلى سنار بالسودان ثم عفا عنهم سنة ١٨٤١ وأعادهم إلى بلادهم وفى سنة ١٨٤٤ فى الثورة التى قامت بين المارونيين والدروز جاء إلى الدروز نجدة من حوران وتدخلت فرنسا فى النزاع ثم بطل النظام الإقطاعى فعاش النكديون مثل غيرهم من الدروز فى طاعة الحكومات المختلفة .

بنو عبد الملك

ينتسب هؤلاء أيضاً إلى عرب الحجاز ووفدوا على لبنان مع الأمراء التنوخيين وسكنوا في مقاطعة المناصف ثم انتقلوا إلى عاليه ثم إلى تباثر وأقاموا بها ، وقد اشترك زعيمهم جانبلاط سنة ١٧١١ م مع الأمير حيدر الشهابي في نزاعه مع الوالي محمود باشا أبي هرموش في موقعة غزير وموقعة عين داره ، فأقطعه الأمير حيدر مقاطعة الجرد ولقبه بالأخ العزيز ، ومع ذلك لم يذكر التاريخ شيئاً يذكر عن هذه الأسرة .

بنو حصن الدين

هذه الأسرة من الأسرات التي أخلصت للعلم قبل كل شيء ، فقد وفد رئيسها حصن الدين من حلب سنة ٧٨٥ هـ (١٣٨٣ م) إلى الأمراء التنوخيين وأصبح فقيه إمارتهم ، وورث ابنه عبد الله علمه ولقبه ، وفي سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٧ م) ذهب ناهض الدين ابن عبد الله بن حصن الدين إلى الشيخ عبد الله التنوخي العالم المعروف فأخذ عنه العلم واستوعبه فأعجب به الشيخ التنوخي وبعثه لينشر العلم في منطقة الشوف ، وظل أفراد هذه الأسرة يتمتعون بالاحترام الديني في وسط الدروز حتى كان القرن الثامن عشر الميلادي وفيه عين الشيخ قاسم ابن عبد الله أحد أفراد هذه الأسرة مديراً لأمور القاضي الشيخ قبلان ثم اتخذه الشيخ علي جانبلاط مديراً لأمور إقطاع الشوف كله ، وفي سنة ١٨٣٢ م تولى الشيخ قاسم بن حسين بن علم الدين مرتبة ناظر العقال . وكان له يد في تخفيف حدة التوتر التي كانت بين الدروز والأمير بشير الشهابي ، وهكذا ظلت هذه الأسرة تتمتع بمكانة مرموقة لما اتجه إليه أفرادها من العلوم والتدين .

بنو علم الدين

أسرة تنوخية الأصل تنسب إلى علم الدين بن سليمان بن غلاب بن علم الدين الذى خرج على التنوخيين القيسية وصار أميراً على اليمنى بلبنان سنة ١٣٠١ م وفى سنة ١٦٣٣ م هاجم الأمير على بعض إقطاعات آل معن ثم هاجم الأمراء التنوخيين القيسية ، واستطاع سنة ١٦٣٧ م أن يكون والياً على الشوف بمساعدة والى دمشق ، ولكن أراد الأمير ملحم المعنى أن ينتقم منه ففر الأمير على إلى دمشق واستغاث بوالها الذى أرسل معه جيشاً أخاف الأمير ملحم فهرب ، وخلق إقليم الشوف والغرب والمثن والجرد من السكان وصار على أمير الموقف بها ، وفى سنة ١٦٤١ م ترك الحمادية وهم شيعة اثنا عشرية (متاوله) وادى علمات وبلاد جبيل فاستولى الأمير على عليها ، ولكن اتفق آل معن والشهابية والحمادية ضده وهزموه وهو فى وادى التيم وقتل عدد كبير من رجاله وأصيب الأمير على بجراح أليمة ولكنه استطاع الوصول إلى دمشق فقبض عليه واليا وسجنه ، وظل فى سجنه إلى أن تولى أحمد باشا الكبرى دمشق وطلب إليه أن يحارب القيسية ، فقدم إليه أمراء بنى علم الدين يناصرونه فولى الأمير محمد بن على وأخاه الأمير منصور مقاطعات الغرب والجرد والمثن ، ولكن فى سنة ١٦٦٤ م قام الأمير أحمد المعنى برجاله وحارب الأمير محمد بن على من بنى علم الدين وهزمه فى الشوف ودام القتال نحو ستين حتى انكسرت شوكة اليمنى وكانت موقعة برج بيروت سنة ١٦٦٧ م بين الفريقين ، انهزم فيها اليمنيون وتفرقوا فى مقاطعات الشوف والغرب والجرد والمثن وكسروان ، وفر أمراء آل معن إلى دمشق واستقروا بها .

وفى سنة ١٦٩٣ سافر الأمير موسى مع الصدر الأعظم على باشا إلى إسلامبول واستعاد مكانته عند الباب العالى واستطاع أن يعيد إقطاعات بنى علم الدين فى الشوف والجرد والمثن والغرب وكسروان وجزين ، وأمره الباب العالى أن يقتلع بنى معن ، ولكن الأمير أحمد المعنى قدم بدروز بنى تيم إلى الشوف ، وقدم الأمير أحمد إلى والى صيدا رشوة حتى لا يساعد الأمير موسى فاضطر موسى إلى الفرار

إلى دمشق ، وفي سنة ١٧٠٩ تولى الأمير يوسف النيني الشوف فسار إليها مع الأمراء من آل علم الدين ولكن الأمير حيدر الشهابي دهمهم وقتل جميع الأمراء من آل علم الدين وبذلك لم يعد التاريخ يذكر شيئاً عنهم .

بنو عماد

تتسب هذه الأسرة إلى قبيلة كانت تسكن بجوار الموصل ثم رحلوا إلى الجبل الأعلى بجوار حاب وسكنوا قرية تليتا ثم انتقلوا بعد ذلك إلى مقاطعة العرقوب بلبنان في القرن السادس عشر الميلادي وكان زعيمهم رجل يسمى عماد ، وحدثت منازعات بينهم وبين الجنبلاطية انتقلوا بعدها إلى الباروك ، وفي سنة ١٦٦٠ م تولى الشيخ سرحال العمادي جبل الشوف من قبل أحمد باشا الكبير بدلا من الأمير أحمد المعني وأخيه الأمير قرقماس ، فأراد سرحال أن يشرف بمصاهرة المعنيين بأن يتزوج إحدى بناتهم فلم يقبلوا ، وأضمرها الأمراء المعنيون في نفوسهم فلما عادت الإمارة إلى الأمير أحمد المعني أمر بقتل جميع رجال آل عماد ، ولكن رجلا واحداً فقط من العماديين استطاع الفرار متنكراً إلى البقاع ، وعمل راعياً للبقر وسمى نفسه بعيزق ومن ذريته كثر عدد العماديين حتى أصبح لهم شأن في الحركات الثورية التي كانت في لبنان واستطاعوا أن يتزعموا حزب اليزبكية المناهض لحزب الجنبلاطية .

ففي سنة ١٧١١ م اشترك العماديون مع الأمير حيدر الشهابي في موقعة عين دارة ، وفي أواخر القرن الثامن عشر ظهر بينهم الشيخ قاسم بن عبد السلام الذي اتقن كثيراً من علوم مختلفة وكان فصيح اللسان قوى الحججة ، فاتفق أنه ناظر الشيخ على الجنبلاطية ، واشتدت بينهما المناقشة فأدت إلى مشاحنة بين الجنبلاطية والعمادية انقسم بسببها الدروز إلى طائفتين أو مشيختين الجنبلاطية واليزبكية ، ولم يشترك في هذا الانقسام شيوخ النكدية .

ومن العجيب أن هذا الانقسام بين طائفة الدروز في لبنان عم فانقسم سكان لبنان جميعاً إلى جانبلاطية ويزبكية ، وفي سنة ١٧٩٤ هـ حدث ما أدى إلى هروب

العماديين إلى حوران ثم عادوا بعد أن أرضوا الوالى الشهابى بأموال ، وأصبح تاريخهم بعد ذلك نصب المكاييد للجانبلاطية أو محاربة الشهابية أو مخالفتهم والتقرب إلى الولاة حتى جاء بعض شيوخهم إلى مصر وعلى رأسهم الشيخ على سنة ١٨٠٨ م للتقرب إلى محمد على وفى سنة ١٨٢١ م تولى الشيخ على مقاطعة مرج عيون . وفى سنة ١٨٣٢ م حاربوا مع إخوانهم الدروز جيش إبراهيم باشا فأمن فيهم قتلا وهدم بيوت العماديين ثم حاربوه مرة أخرى سنة ١٨٣٥ م فى وادى التيم ولكنهم هزموا وضعف بعد ذلك آل عماد .

آل أرسلان

هؤلاء هم سلالة القبائل العربية الذين عرفوا فى التاريخ بالمناذرة ملوك الحيرة ، وهؤلاء الأمراء الذين بعث بهم أبو جعفر المنصور من بلاد المعرة إلى لبنان لحماية السواحل من بغتات الروم ولقتال المردة ، وأقطعهم المنصور العباسى إقطاعات واسعة فى لبنان ، فانتشروا فى جبال بيروت وعمروها ، وما زالت الإقطاعات فى أيديهم وولاة العباسيين يقرونهم على هذه الإقطاعات إلى أن أنعم على الأمير النعمان بن عامر الأرسلانى بلقب أمير الدولة وأقره ماجور والى دمشق على ولاية بيروت وصيدا وجبلهما ، وأمر بالإقامة فى بيروت ليحافظ عليها من الروم ، والأمير النعمان هذا كان ممن لازم الجاحظ والمبرد وأخذ عنهما ، وفى سنة ٨٧٥ م هزم الأمير النعمان جحافل المردة على نهر بيروت هزيمة منكرة جعلت الخليفة العباسى المتوكل يكتب إليه يمدحه ويقره على ولايته له ولذريته من بعده ويرسل له سيفاً ومنطقة وشاشاً أسود ، واستمر الأمراء الأرسلانيون على إقطاعات وكلما مرت الأيام ازدادت سطوتهم واتسع ملكهم واشتهر أمرهم حتى إنه فى سنة ٩٢٤ م مر أحمد بن محمد بن أبى يعقوب ابن هرون الرشيد بأسرته ببلاد لبنان فاستقبله الأرسلانيون بالحفاوة وأكرموه غاية الإكرام وطلبوا إليه أن ياتى عليهم شيئاً من علم الحديث الذى عرف به ثم تمت مصاهرتهم مع أسرته إذ تزوج الأمير المنذر سيف الدولة الأرسلانى بالسيدة كلثوم سليمة العباسيين ، وكان لهذه المصاهرة أثرها فى ازدياد نفوذ هذه الأسرة وتوطيد مكانتها عند الخلفاء العباسيين وعند الشعب ، وفى إمارة سيف الدين المنذر الأرسلانى فتح

الفاطميون بلاد الشام ونشروا فيها عقيدتهم ، وأقر الفاطميون الأمراء الأرسلايين على ما بأيديهم من الولايات الإقطاعية وأصبحوا من شيعة الفاطميين ، مع أن الأمير سيف الدين المتوفى سنة ٣٦٠ هـ كان من أعلم أهل زمانه بمذهب مالك وله في ذلك كتاب « تيسير المسالك إلى مذهب مالك » كما كان على علم تام بأصول مذهب الأوزاعي وله في ذلك كتاب « الأقوال الصحيحة في أصول مذهب الأوزاعي » ، وكان للأرسلايين مشاركة في الحروب التي قام بها هفتكين التركي ضد الفاطميين بالشام فقد استجاب بعضهم إلى هفتكين وحاربوا معه ، وحارب البعض الآخر في صفوف الفاطميين فانقسم الأرسلايون وحارب بعضهم بعضاً ثم اجتمع أمراؤهم على تقسيم إقليم الغرب بينهم على ألا يتعرض أحدهم للآخر ، ومع ذلك فقد استمر النزاع بين الأمراء الأرسلايين فيمن يتولى رئاسة البلاد وإمارتها فكان يکید بعضهم لبعض ويحارب بعضهم بعضاً وقد حدث في سنة ١٠١٤ م أن توفي الأمير أبو الفضل مطوع بن تميم وترك أربعة أولاد هم أمرو القيس وهاني وموسى وبركات ، فانقسم أهل ولاية الغرب إلى قسمين : قسم يطلب إمارة ولده الأمير موسى والقسم الثاني يرى إمارة أبي الفوارس معضاد بن همام وأخيراً انتصر حزب موسى فتولى الإمارة إلا أنه اضطر بعد عام واحد بسبب الحروب بين الطائفة إلى أن يترك الإمارة إلى منافسه أبي الفوارس وفي الحروب التي قامت بين الفاطميين وبنى مرداس أصحاب حلب انضم الأرسلايون إلى الفاطميين ، ولما قامت الحروب الصليبية أسرع الأمراء الأرسلايون إلى نجدة إخوانهم العرب ففي سنة ١١٠٠ م حاربوا جيوش بلدوين الفرنسي في مغارة نهر الكلب وفي السنة التي نلها حاربوا جموع ريموند ، وفي سنة ١١١٠ م حاول بلدوين فتح بيروت وحاصرها برّاً وبحراً ودافع عنها الأمير شجاع الدولة ، فاضطر بلدوين إلى أن يستعين بالمردة وبالإمارات الصليبية في شمال لبنان وفلسطين ، وتكاثرت جموع الصليبيين ، والأرسلايون يدافعون عن بلدتهم دفاعاً مجيداً واستمر القتال زهاء شهرين إلى أن سقطت المدينة بعد أن قتل عدداً كبيراً من الأمراء الأرسلايين ، وانتقم بلدوين من أهالي البلد الذين ساعدوا الأمراء فذبح عدداً كبيراً منهم وسبي النساء والأطفال ، وأحرق كل دور الأمراء في الغرب ، وهرب عدداً من أهالي الغرب إلى حوران ، وفي سنة ١١٢٦ م بدأ الأمير مجد الدين ينظم جموعه وأخذ يهاجم

بهم الصليبيين حتى قتل فتولى الإمارة بعده أبو العشائر ناهض الدين بجتر بن عضد الدولة الذى سار سنة ١١٥١ م وأوقع بالصليبيين هزيمة منكرة عند راس التينة وجعلت الصليبيين يسرعون بالفرار أمامه إلى بيروت وتحصنوا بها ، وشجعه هذا الانتصار على موالاة بغتاته على الإمارات الصليبية فى جميع بلاد الشام حتى خشى بأسه الصليبيون ، وفى سنة ١١٥٧ م ، تولى الأمير ناهض وتولى الإمارة ابنه الأمير على الذى ساعد نور الدين زنكى فى حروبه ، وفى حروب السمار وخاصة فى موقعة عين جالوت كان الأمير زين الدين صالح الأرسلاى يقود رجاله بجانب المماليك حتى تم الفوز للمسلمين ، كما اشتركوا مع الظاهر برقوق فى حروبه مع أعدائه وحضروا معه موقعة كسروان ولما نهض السلطان سليم العثمانى للاستيلاء على بلاد الشام ومصر ، انضموا إليه ، وكان نتيجة ذلك أن تولى الأمير جمال الدين الأرسلاى بلاد الغرب واليمن والجزد ، كما تولى الأمير قرقماز المعنى ولاية الشوف ولكن انضم قرقماز بعد ذلك إلى ثورة ابن الحسن فاضطر الأمير جمال الدين إلى محاربته وانتزاع ولاية الشوف فأصبح أميراً على جبل لبنان الجنوبي ، ومن ثم أعلن المعنيون أنهم قيسية انتقاماً من الأرسلايين اليمنية ، وازدادت الحفوة بين القبائل القيسية واليمنية واشتدت الحروب بين الطائفتين حتى قاست البلاد كثيراً من هذه الحروب ، كما قاسى الأرسلايون من حروبهم ضد الشهابيين الأمراء . وكان الدروز من القيسية أو اليمنية كلما حزب بهم الأمر يهربون دائماً إلى حوران ووادى التيم ثم يعودون بعد أن يصفو الجو ، وكان ولاية العثمانيين بالشام يعملون على إيقاظ الفتنة بين القيسية واليمنية ويؤلبون الدروز ضد الشهابيين ، وكثيراً ما هرب الأمراء الأرسلايون إلى عكا أو إلى اللجأ كلما نزلت بهم الهزائم ، وكثيراً ما كان يفد بعض الأمراء الأرسلايين إلى مصر ليستعينوا بالخدويين بها ثم حدثت الفتنة التى أشرنا إليها من قبل بين الدروز والموارنة ، التى انتهت بالصالح .

هذه هى الأسرة الأرسلاية التى سجلت نسبها على طول التاريخ فكان كل أمير منهم يذهب إلى الثقافة من العلماء والشيخوخ الأجلاء ليكتب له سجلاً بنسبه وقد نشر المرحوم شكيب أرسلان أحد فحول الأدب العربى فى العصر الحديث هذا السجل فى آخر ديوان شقيقه نسيب أرسلان وهو الديوان المعروف « بروض

الشقيق في الجزل الرقيق » كما اعتمد كل من كتب عن هذه الأسرة على هذا السجل التاريخي القيم .

من هذه اللوحة التاريخية عن أشهر أسرات الدروز على مر التاريخ نستطيع أن نتبين في سهولة ويسر أن الدروز من أصل عربي خالص وأن كل ما قيل عن أنهم من أصل فارسي أو آرامي أو فرنسي أو إنجليزي فهو كلام قيل لسبب استعماري خالص ليعيدوا هذه الطائفة عن إخوانهم العرب وعن المسلمين خاصة . وها هو ذا التاريخ يحدثنا عن اشتراكهم مع إخوانهم العرب ومع إخوانهم المسلمين في كل الحركات الحربية التي كانت ضد العرب والمسلمين ، فهل نغير التاريخ إرضاء للمستعمر الأجنبي ؟

وإذا تركنا الناحية التاريخية التي لا يدخلها الشك في أصل الدروز العربي ، واتجهنا إلى دراسة المجتمع الدرزي الآن سنجد أنهم يمتازون بنحصال لا يعرفها إلا المجتمع العربي ، فالدروز لكونهم أقلية اضطروا إلى أن يكونوا شديدي المحافظة على تقاليدهم القديمة ولم يختلطوا بغيرهم من الشعوب وصاروا في شبه عزلة مستقلين عن كل شيء يحيط بهم ، ولذلك ظلت أخلاقهم وعاداتهم هي نفس الأخلاق والعادات التي ورثوها جيلا بعد جيل دون أن تتأثر بمؤثرات خارجية ، وأهم ما نراه من ذلك في مجتمعهم أنهم شديدي الحرص على المثل الخلقية التي يمتاز بها العرب القدماء ، فالدرزي لا يعرف الكذب بل هو صادق في كل كلمة يقولها وهو لا يعرف النفاق ولا الرياء ولا التظاهر بغير ما يضمّر ، ولصدقه أشهر الدرزي بالأمانة والحلم والصبر ، فهو لا يحاول أن يسيء إلى أحد ويتسامح مع من يسيء إليه ، ولكن عند ما يشتد به الأمر فلا يجدي عفوهُ أو تسامحه شيئا لصدق المثل « اتقوا غضب الحليم » ، ولصدق الدرزي نجده شديد الوفاء لدرجة أن الدرزي يضحى بنفسه في سبيل وفائه لأصدقائه ، فهو شديد المحافظة على عهوده ومواريثه مهما كلفته هذه المحافظة ، وهو ذو مروءة لا ينساها في غضبه حتى إنه لا ينسى المروءة وهو يأخذ بالتأثر ، ويتحدث كل من زار الدروز عن كرمهم الذي يزرى بكرم حاتم الطائي ، فإذا أنت دخلت منزل أحدهم فهو لا يقبل إلا أن يقف بين يديك لخدمتك حتى تدعوه إلى الجلوس ، ولا يقبل أن يتولى خدمه أو أتباعه

أن يقوموا على خدمتك مهما كان مركزه الاجتماعى بحيث ينجل الضيف من كرم المضيف ويسر المضيف بتعذيب نفسه فى سبيل الضيافة ، ولا يعرف المجتمع الدرزى شيئاً عن الزنا أو الحياة الزوجية أو ما شبه ذلك من المفاصد الاجتماعية فالمرأة الدرزية أعف نساء العالم وأشدهن طهارة ومحافضة على شرفها ، ولا يزال الحجاب إلى الآن مضروباً على نساء الدروز بل حجاب المرأة من صميم عقيدة الدروز .

فإذا نظرنا إلى هذه الأخلاق وتلك العادات فسنجد أنها أخلاق عربية خالصة لا نكاد نجد لها فى أى مجتمع آخر غير المجتمع العربى ، والكتاب جميعاً أشاروا بهذه المثل الخلقية التى يتمتع بها العرب دون سواهم ، وهذه المثل ظاهرة ظهوراً لافتاً فى مجتمع الدروز متأصلة فيهم تجرى مع دماهم العربية فى عروقهم ، فهم ليست بأخلاق مكتسبة بل هى أصيلة عندهم مما يجعلنا نقول إن الدروز عرب يتمتعون بكل الحاصل العربية ، وإذا نظرنا إلى تاريخ الدروز فى العصر الحديث والدور الذى قاموا به فى حركات التحرير العربى سنجد أن عواطفهم وقلوبهم وسواعدهم الفتية إنما جعلوها لنصرة الوطن العربى والقومية العربية ، فالدور الذى قام به سلطان باشا الأطرش مع العرب لتحريرهم من السلطان العثمانى دور يمتاز ببطولة أشاد بها جميع الكتاب ، وإذا كان ملوك العرب الذين اشتركوا معه فى معركة التحرير هذه خانوا العروبة فى سبيل مطامعهم الشخصية وحرصهم على تقسيم الغنيمة بينهم فإن سلطان باشا الأطرش قام بدوره فى سبيل العروبة دون أن ينتظر جزاء ماعمل ، وها هو ذا مرة أخرى يثور ثورة عاتية ضد جيش الاحتلال الفرنسى ، وخرجت جيوش فرنسا بدباباتها ومدافعها الثقيلة وطائراتها وحاصروا رجال سلطان باشا الأطرش ودام الحصار طويلاً دون أن ينال منهم الفرنسيون حتى إذا نفذت ذخيرة الدروز استطاعوا أن يوجدوا ثغرة بين الجيش الفرنسى وخرقوا الحصار ، ورحلوا عن بلدهم إلى إخوانهم فى فلسطين وهناك طلب إليهم الملك عبد الله بن الحسين ملك الأردن أن يلجأوا إليه وبعث إليهم بسيارات لينقلهم ، ولكن سلطان باشا لاحظ أن السيارات ترفع العلم البريطانى فرفض ركوبها أو الالتجاء إلى الملك عبد الله لأنه كان يعرفه معرفة تامة ، ويعرف أنه عبد للاستعمار خاضع له ، وسلطان الأطرش رجل لا يعرف الخضوع إلا لعربى

حر مثله ؛ ثم ما كان من دكتاتور سوريا العقيد أديب الشيشكلي الذي أراد أن يفرض إرادته على الدروز فلم يقبلوا الخضوع له وثاروا على حكومته فأمر بحربهم وخرج الجيش السوري بأكمله في حملة تأديبية للدروز الذين لم يخضعوا للدكتاتور الشيشكلي ، ولم يستطع الجيش أن ينال من الدروز ، فاضطر الشيشكلي إلى الاستعانة بالعلويين بعد أن نشر بين العلويين رسالة من الكتب المقدسة عند الدروز فيها تفنيد لفصائح عقيدة العلويين وفضح عوارهم مما جعل العلويين يحنقون أشد الحنق على الدروز وقاموا جميعاً لمحاربتهم ، واستطاع الدروز هذه المرة أيضاً أن يخرجوا من بلدهم فدمروها العلويون تدميراً ونهبوا ما بها . وبعد أن قامت الوحدة بين مصر وسوريا كان الدروز في سوريا من أشد الناس ترحيباً بهذه الوحدة التي جمعت بين قطرين عربيين طالما كانا في وحدة في العصور السابقة ولو لم يفرقهما الاستعمار الأجنبي ومطامع بعض الحكام لظلالاً على وحدتهما طوال التاريخ . ولا نزال نذكر أن فوزى القاوقجي قائد الثورة الفلسطينية ضد الصهيونيين والإنجليز كان يستعين في تحركاته بالأبطال الدروز واتخذ لنفسه حرساً خاصاً منهم لما يعهده فيهم من وفاء وأمانة وشجاعة .

كذلك لا ننسى موقف الزعيم العظيم كمال جنبلاط في الحركة القومية التي قام بها مع بعض زعماء لبنان ضد التدخل الأجنبي والسيطرة الأجنبية في لبنان وكيف قاد كمال جنبلاط الدروز في منطقة الشوف واستطاع أن ينتصر بهم في المعارك التي خاضها حتى تم له وإخوانه النصر على الأجنبي وعملاء الاستعمار كل هذه الحركات التي حدثت في عصرنا الحديث هي في الحقيقة استمرار لأحداث الماضي التي تدل على عروبة الدروز وأن الدروز دائماً كانوا يداً واحدة مع إخوانهم العرب لم يتخلوا عنهم ، وكيف يتخلى الأخ عن أخيه في محنة من المحن .

من ذلك كله ندرك أن جبال لبنان هي معقل الدروز ، ومنه كانت الهجرة إلى وادي التيم وحواران إبان الأزمات التي كان يمر بها دروز لبنان بالرغم من أن وادي التيم عرف المذهب الدرزي قبل غيره من البقاع .

الفصل الثانى

طبقات المجتمع عند الدروز

يعيش الدروز الآن فى بقاعهم المختلفة فى لبنان وسوريا وفلسطين كما كانوا يعيشون من قبل ولم يبدأوا فى التطور إلا فى هذا القرن فقط ، يعيشون على الزراعة وما تنتجه الأراضى . ولم يهتموا بالتجارة أو الصناعة ، والنظام السائد فى المجتمع الدرزى هو النظام الإقطاعى الرقيق الذى كانوا عليه منذ عدة قرون ، فالقرى خاضعة لشيخ القرية ، الذى يختاره الأمير ، وشيوخ القرى خاضعون للأمراء الذين يتوارثون الإمارة ، والجميع خاضعون للنظام الشيوقراطى القديم وذلك يأتى الدروز منذ عصورهم الأولى أن يخضعوا إلا لمشايخهم فقط ولا يعترفون بسلطة أحد سوى أمرائهم وقد رأينا أنهم حاربوا مع أمرائهم لا لشيء سوى الخضوع لهذا الأمير وإطاعته طاعة عمياء ، فى حروب الأمراء بعضهم مع بعض أو فى حروبهم مع الصليبيين أوللانتصار لأحد الولاة إنما كانوا يقومون بذلك كله طاعة لأمرائهم ، ولا يهتمون بمن يكون الوالى على الإقليم الذى هم فيه ما دام الوالى على اتفاق مع أمير مقاطعتهم ، والويل كل الويل للوالى الذى يتدخل فى شئونهم أو يغضب أميرهم .

وهم من الناحية الدينية ينقسمون إلى عقال أو أجاويد أى الذين لهم الحق فى معرفة شيء من العقيدة السرية ، وبين جهال أى الذين ليس لهم الحق فى معرفة أسرار الدين ، والعقال ينقسمون بدورهم إلى درجات ثلاث فى مساء كل يوم جمعة يجتمع العقال فى أماكن العبادة التى تعرف بالحلوات (جمع خلوة) لسماع ما يتلى عليهم من الكتاب المقدس وبعد تلاوة المقدمات يخرج من الخلوة الطبقة الدنيا من العقال ، ثم بعد تلاوة بعض الرسائل البسيطة التى ليس بها تأويلات تخرج الطبقة الثانية بحيث لا يبقى إلا رجال الدرجة الأولى الذين لهم وحدهم الحق فى سماع الأسرار العليا للعقيدة ، أما الجهال فلا يسمح لهم بحضور هذه الحلوات أو بسماع شيء من الكتب المقدسة إلا فى يوم عيدهم وهو يوافق عيد الأضحى عند المسلمين .

على أن طبقة الجهال يسمح لهم بأن ينتقلوا إلى طبقة العقال بعد امتحان عسير شاق يقوم على ترويض النفس وإخضاع شهواتها مدة طويلة ، إذ لا يقبل في طبقة العقال من يدمن التدخين مثلاً ، فعلى المدخن من طبقة الجهال أن يقلع عن عادة التدخين إذا أراد أن يكون من طبقة العقال ، وهكذا نقول عن غير التدخين من الشهوات ، وقد يستمر الامتحان أكثر من سنة بأكملها حتى يثق الشيوخ بأحقية الطالب أن ينتقل من طبقة الجهال إلى طبقة العقال ، والعقال في المجتمع الدرزي يعرفون بعمائمهم ولبس القباء الأزرق الغامق ويطلقون لحاهم على أن الذين يسند إليهم وظائف حكومية يباح لهم ترك هذه الملابس وارتداء الزي الذي يتطلبه منصبه الرسمي والنساء في المجتمع الدرزي ينقسمن أيضاً إلى عاقلات وجاهلات مثل الرجال تماماً لا فرق بين المرأة والرجل ، والنساء العاقلات يلبسن النقاب وثوباً اسمه (صاية) على أن الغالب على نساء الدروز هو الحجاب على نحو ما ذكرنا .

وللدروز رؤساء دينيون في كل مكان على رأسهم شيخ يلقب بشيخ العصر ، ويتولى منصبه بالانتخاب أو بالاتفاق بين الزعماء وكبار رجال الطائفة ، ولشيخ العصر أعوان في كل قرية أو بلد هم شيوخ عقل محليون ، وشيوخ العقل في لبنان ينقسمون إلى حزين سياسيين هما الشيوخ الجانبلاطية والشيوخ اليزبكية ، بينما ينقسم الدروز عامة في لبنان مدنياً إلى أمراء ومشايخ وعامة ، فالأمراء هم آل أرسلان والمشايخ هم الجانبلاطية واليزبكية .

وللدروز قضاة منهم يحكمون دائماً حسب الشريعة والتقاليد الإسلامية إلا أنهم في بعض المسائل الخاصة يحكمون حسب التقاليد الدرزية فمثلاً لا يجوز أن يوصى بأملاكه التي ورثها عن جدوده وآبائه لأحد أبنائه دون الآخرين ، بل إن الأملاك الموروثة عن الأجداد ملك لكل أفراد الأسرة فلا يحرم منها واحد ، أما إذا كان الميراث مجدداً عن جهد شخصي فللمورث الحق في منحه من يشاء من أبنائه ، والمرأة لا تراث شيئاً من دار أبيها . ولا يجوز لرجل أن يجمع بين زوجتين ، إذ لا يجوز له أن يحتفظ إلا بـ زوجة واحدة فإذا طلقت جاز له أن يتزوج غيرها ، وليس عند الدروز نظام المحلل ، فالزوجة إذا طلقت من زوجها لا يجوز أن تعود إليه بأي حال من الأحوال حتى لو تزوجت غيره .

والدرزى على نحو ما رأينا فى تاريخه - من أشد العرب صلابه عود ، شجاع
مقدام وجندى باسل يخوض المعارك العنيفه دون خوف ولا وجل ، ولهذا ينتصر
الدروز دائماً فى معاركهم مع أعدائهم مهما كان عدد الأعداء ، ومع ذلك كله
لم يستطع الدروز أن يقيموا لهم دولة كما فعل الفاطميون فى المغرب أو الإسماعيلية فى
فارس ، ولعل ذلك يرجع إلى قلة عددهم .

الباب الثاني

الوهية الحاكم

الفصل الأول

شخصية الحاكم بأمر الله

شهدت عصور التاريخ شخصيات استطاعوا أن يخلدوا اسمهم بما قاموا به من أعمال مجيدة في خدمة الإنسانية عامة أو فيما عاد بالنفع على قومهم ، وقد يخلد اسم بعضهم بأعمال شاذة أصيبت الإنسانية بسببها بخسائر جسيمة أو بأضرار يتناقلها الناس مدى التاريخ ، ويصبح هؤلاء الشواذ مثلاً تضرب للفساد ، والمصلح والمفسد سرعان ما يصبحان من أبطال القصص الخيالية أو القصص الفكاهية والنوادر ، وتصور هذه القصص جلائل أعمال المصلح ومآثره على قومه أو على البشرية ، كما تتحدث في سخط وازدراء أو في سخرية وتهكم بالفسد ؛ ولا أكاد أعرف بين شخصيات التاريخ من جمع بين هذه المتناقضات في حكم المؤرخين ، وأحاديث العامة مثل شخصية « الحاكم بأمر الله » الذي حكم رقعة واسعة من الأرض امتدت من المحيط الأطلسي إلى جبال طوروس وشملت فيما شملته جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا والجزيرة العربية ، ودان له بالإمامة عدد كبير في العراق وفارس والهند ، فكان إمبراطوراً على أكبر دولة في عصره وظل في حكمه من سنة ٣٨٦ هـ حتى سنة ٤١١ هـ ، هذا الإمبراطور اختلف الناس في شخصيته اختلافاً شديداً جداً ، فقد رفعه قوم إلى درجة الألوهية وهم الدروز ، واعتقد فيه قوم أنه إمام المسلمين وخليفة رب العالمين وسليل الرسول الكريم وهم الإسماعيلية الفاطميون ، وذهب أكثر المؤرخين إلى أنه كان شاذ الطباع مريضاً بالعقل يأتي بأعمال تضحك الثكلى تدل على الجنون وهؤلاء هم مؤرخو العرب والمؤرخون المسيحيون . ووقف المؤرخون المحدثون منه نفس موقف القدماء فاحتار العلماء في تكييف شخصية « الحاكم بأمر الله »

وخاصة من ناحية أعماله وتصرفاته أو سلوكه بصرف النظر عن ناحية منزلته الدينية بين الناس ؛ هل كان الحاكم بأمر الله عاقلاً في سلوكه ، وهل كان عادلاً في حكمه ، أم أن سلوكه كان نتيجة نزوات خاصة مصدرها مرض أصيب به في صغره فكانت تأتية من حين لآخر نوبات تشنجية عانى منها كثيراً إلى أن شفى ، ولكن هذا المرض أثر على عقليته فكانت أعماله وسلوكه نتيجة لهذا المرض ؟ وهل حقيقة أتى الحاكم بهذه الأعمال التي ينسبها إليه المؤرخون ، أم هي من خيال أعدائه ، أم من قبيل فكاهات المصريين الذين عرفوا بالنكت اللاذعة كلما رأوا عملاً لا يعجبهم ؟ هذه أسئلة سنحاول الإجابة عليها في هذا الفصل ولن أتحدث عن التاريخ في عصر الحاكم على نحو ما يفعله المؤرخون السياسيون لأن مثل هذا الحديث يخرج عن دائرة هذا الكتاب .

في سنة ثلثمائة وخمس وسبعين من الهجرة (أى ٩٨٥ م) وقف الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ينشد أخاه العزيز بالله قصيدة من قصائده الخالدة يهنته فيها بمولود رزقه جاء فيها :

ليهن الملك مالكة الجديد	ووارثه وإن رغم الحسود
أتيت به أبا المنصور فرداً	تنير به الليالي وهي سود
يلوح عليه منك هدى وفضل	ويظهر منك فيه حجباً وجود
حكاك كما حكيت أباك شها	كذاك الأسد أشبلها الأسود
وليد كانت الدنيا ترجى	ولادته وترقبه السعود

كان هذا الوليد هو المنصور بن العزيز بالله بن المعز لدين الله الفاطمي ، وهو إذن أحد أفراد هذه الأسرة التي عرفت في التاريخ بخلفاء الدولة الفاطمية . وكان أبوه العزيز بالله ثاني من تولى الخلافة الفاطمية في مصر كما أن ابنه المنصور الذي لقب بالحاكم بأمر الله هو أول من ولد في مصر من الخلفاء الفاطميين . ويظهر أن المنصور كان مدلهاً في صغره شأن الولد الأكبر للملوك وخاصة إذا كان هذا الابن هو الولد الوحيد لأبيه ، فالعزيز لم ينجب ولداً سواه ، وفتاة أخرى غير شقيقة تكبره في السن ، ولذلك جعل العزيز حبه كله لهذا الولد ، ويذكر المؤرخون أن العزيز لما علم باضطراب الأحوال في الشام لقيام بعض الخونة والتفيعين باستدعاء

الروم - أعداء العرب - لانتزاع الشام من أيدي الفاطميين ، ثم ما كان من قيام الإمبراطور باسيل الثانى بحملة على بلاد الشام ، وبفضل الحياة استطاع أن ينتصر وأن يفتح عدة بلاد سنة ٣٨٥ هـ الأمر الذى جعل العزيز بالله يخرج بنفسه على رأس جيش كبير من مصر سنة ٣٨٦ هـ . ولكنه مرض فى مدينة بلبيس فاستدعى ولده الوحيد وولى عهده المنصور ليكون بجانبه فى مرضه وليكون آخر من تقع عليه عيناه إذا حانت منيته ، ويروى المؤرخ ابن خلكان أن الحاكم بأمر الله قال بلخيسه وصفه المؤرخ المسيحى يروى هذه القصة « يا مختار ، استدعانى والذى قبل موته وعليه الحرق والضمار ، فاستدنانى إليه وقبلنى وضمنى إليه وقال : وأغمى عليك يا حبيب قلبى . ودمعت عيناه ثم قال : امض يا سيدى والعب ، فأنا فى عافية . قال الحاكم : فضيت والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه ، فبادر إلى برجوان وأنا فى أعلى جميزة كانت فى الدار ، فقال برجوان " انزل ويحك ، الله الله فىنا وفيك " فنزلت فوضع العمامة بالجواهر على رأسى وقبل لى الأرض وقال " السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته " وأخرجنى إلى الناس على تلك الهيئة . »

فهذه القصة تدل على أن العزيز بالله كان يؤثر ابنه ووحيدده بالحب والعطف وأنه ترك الدنيا وابنه الحاكم لا يزال صبيًا صغيراً فى الحادية عشرة من عمره لم تحنكه التجارب ولم يتلق من علم الحياة إلا أنه أمير أثير عند أسرته وحاشيته بنعم فى ترف الفاطميين وبذخهم ويرعاه غلمان الفاطميين من الصقالبة وغير الصقالبة الذين كثروا فى قصور الفاطميين ، وبصحبة أبناء كبار الدولة الذين استقدمهم الخلفاء ليربوا مع أبنائهم فى القصور بالقاهرة حتى يغرسوا فى نفوسهم حب الخلفاء والولاء لهم وللدولة حتى إذا كبروا تولوا المناصب الهامة ثقة من الخلفاء فيمن نشأ بينهم مع أبنائهم . هكذا نشأ المنصور ابن العزيز الذى لقب بالحاكم بأمر الله عند ما تولى عهد الخلافة فى شعبان سنة ٣٨٣ هـ وهو فى الثامنة من عمره ثم تولى الخلافة بعد موت أبيه مباشرة فى رمضان سنة ٣٨٦ هـ وهو فى الحادية عشرة من عمره ويظهر أن العزيز بالله كان يخشى الموت قبل أن يهيا ابنه للاضطلاع بالملك فعهد بابنه إلى ثلاثة من كبار رجال دولته الذين وثق بهم وهم أبو الفتوح برجوان

والحسن بن عمار الكلبي الكتامي والقاضي محمد بن النعمان بن محمد بن حيون المغربي فإذا نظرنا إلى هؤلاء الأوصياء سنرى أن كل واحد منهم يتمايز بنحवाल وفضائل تؤهله لأن يعهد العزيز بالله إليه بالوصاية بابنه ، فبرجوان عبد من عبيد الفاطميين أخلص لهم الإخلاص كله ، وأظهر أمانة في خدمة مواليه حتى جعله العزيز على قصوره كما كان يتولى تدبير أمر البلاد كلما خرج العزيز للحروب بالشام ، فكأنه كان يمثل مع العزيز بالله نفس الدور الذي قام به عبد آخر من عبيد الفاطميين بالمغرب وهو الأستاذ جوذر في عهد القائم بأمر الله والمنصور والمعز لدين الله كلاهما من العبيد الصقالبة^(١) وكلاهما استطاع أن يصل إلى نفوس الفاطميين حتى إن الخلفاء كانوا يعهدون إلى كل منهما بالإشراف على خزائن القصور وعلى من بالقصور من الحرير والأبناء ، فبرجوان على هذا النحو كان من الثقات عند العزيز . أما ابن عمار فهو أحد أفراد أسرة الكلبيين الكتاسيين الذين خدموا الدولة في ثورة أبي يزيد مخلد ابن كيداد ، وثبتوا أقدام الفاطميين في صقلية وتولوا حكمها باسمهم ، وكان الحسن بن عمار نفسه أحد القواد الذين هزموا الروم في صقلية ولا سيما في موقعة رمطة وغيرها من المواقع ، وأسهم مع جوهر الصقلي في فتح مصر والشام ، وتولى زعامة قبيلة كتامة في مصر وعرفت حسن بلاتة فقربه الخلفاء إليهم حتى جعله العزيز أحد الأوصياء بابنه ، أما الثالث فهو ابن القاضي النعمان بن محمد بن حيون المغربي صاحب أصول فقه الشيعة الإسماعيلية الفاطمية بهذه المؤلفات العديدة التي وضعها حتى ولاه المنصور بالله الخليفة الفاطمي منصب قاضي القضاة بالمغرب وظل يتمتع بهذا المنصب حتى بعد انتقاله إلى مصر مع المعز لدين الله وتوفي بمصر سنة ٣٦٣ هـ فتولى ابنه محمد هذا المنصب الديني الخطير بعد أبيه . هؤلاء هم الثلاثة الذين أودع العزيز أمر ابنه وأمر البلاد أمانة في عنقهم ، غير أن هؤلاء الأوصياء كانوا على أهواء مختلفة ، كل واحد منهم اتخذ لنفسه سياسة تختلف عن الآخر ، فابن النعمان كان رجل دين قبل كل شيء فشاء أن يحافظ على نفوذه الديني دون أن يتدخل في سياسة الحكم وترك ذلك لابن عمار وبرجوان واكتفى بالقيام بواجبه الديني المذهبي ، وانتهز ابن عمار هذه الفرصة لاستعادة نفوذ قبيلته في الدولة ، فالمعروف أن الدولة الفاطمية قامت على أكتاف قبيلة كتامة بالمغرب ، فكتامة حاربت

(١) يذهب ابن خلكان إلى أن برجوان كان من السودان بينما يجمع المؤرخون على أنه كان صقلياً .

الأغلبة وأسست الدولة الفاطمية وكتامة شدت أزر الفاطميين في ثورة أبي يزيد ، وأعادت صقلية إلى أملاك الدولة ، وبكتامة فتح الفاطميون شمال أفريقيا ومصر والشام ، ولذلك كان الكتاميون يدلون بذلك كله على الخلفاء الفاطميين إلى أن تولى يعقوب بن كلس الوزارة للعزير بالله الفاطمي فعمل على إضعاف نفوذ كتامة وتقليم أظافرهما ونجح في ذلك إلى حد بعيد، وما هو ذا ابن عمار الكتامي يتولى الوصاية على صبي صغير لا حول له ولا قوة ، فعمل على إعادة نفوذ قبيلته وبناء مجده الشخصي ودفعه كبرياؤه وغروره إلى أن يتشبه بالملوك فأمر بأن يترجل له جميع الناس على اختلاف طبقاتهم ، وحجب نفسه إلا على نفر قليل من خاصته وزعماء قبيلته ، وتعدى ذلك إلى جوارى قصور الخلافة الفاطمية ففرقهن على زعماء كتامة ، كما وزع عليهم الأموال والوظائف ، فرفعوا عن الناس واعتدوا عليهم وكثر ظلمهم وفسادهم ، وضج الناس بالشكوى من سلوكهم ، وابن عمار يصم أذنيه ولا يقبل أن يستمع شكاوى الناس في أحد أفراد قبيلته ، واشتد جبروته وطغيانه واستأثر بالسلطة كلها ، على أن برجوان قسيمه في الوصاية كان هو من ناحيته يطمع أيضاً في أن يقبض على السلطة في يديه فأخذ يحيك الدسائس ويدبر المؤامرات ضد ابن عمار ، فجذب إليه زعماء الناقمين على ابن عمار حتى قوى بهم حتى إذا ما شعر بقوته أمر أصحابه بمهاجمة الكتاميين في شعبان سنة ٣٨٧ هـ وأمعنوا فيهم القتل والجراح ، ولم يستطع ابن عمار أن يتغلب على خصمه لكثرة أعدائه وقوتهم ، فضعف أمره وغلت يده ، وقبض برجوان على السلطة كلها وسيطر سيطرة تامة على جميع مرافق البلاد المترامية الأطراف ، والخليفة الصغير لم يستطع أن يفعل شيئاً أمام قوة برجوان التي أخذت تزداد يوماً بعد يوم ، ولكن برجوان وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه ابن عمار ، فقد اصطنع الأتراك والصقالبة ليتقوى بهم فأغدق عليهم الأموال وملكهم الولايات وولاهم وظائف الدولة وسمح لهم بما سمح به ابن عمار للكتاميين فنفرت قلوب الناس منه وضجوا بالشكوى من سلوك الأتراك والصقالبة ، وكثر عدد خصومه وعملوا على الإيقاع به ، وكان برجوان وهو في قمة مجده يتوهم أن الحاكم لا يزال ألعوبة في يديه ، ولم يفتن إلى أن الصغير بدأ يكبر ويفهم كل ما كان يحيط به ويدور حوله ، ولا سيما في كل ما يتعلق بمنصبه

وشخصيته ، فقد سمع الحاكم أن وصيه برجوان ينال منه في مجالسه الخاصة ويطلق فيه لسانه في مجالس شرابه وطموه ، وعلم أنه يتعمد نقض أوامره ولا يأبه به ، ثم سعى خصوم برجوان إلى إثارة حفيظة الملك الصغير على وصيه بأن أدخلوا في وهمه أن برجوان يعمل على التخلص من الفاطميين جميعاً ويملك هو البلاد كما فعل كافور الأخشيدي مع مواليه الأخشيديين ، وربما أغروا بعض المحيطين به بأن يحدثوه عن مركز الإمام الفاطمي وما يجب على الرعية من إطاعته طاعة عمياء ، حتى أغروا صدر الحاكم ضد برجوان فقتله في ربيع الثاني سنة ٣٩٠ هـ . واستخلص أمواله ، وبذلك بدأ يستولى بنفسه على مقاليد الحكم وهو لا يزال في الخامسة عشرة من عمره ، أي أن الحاكم اضطلع بمهام الحكم وهو في هذه المرحلة الخطيرة من سنى حياته وهي مرحلة قلق نفسي لما يطرأ على جسم الإنسان من تغيرات جهرية ، وعلماء النفس يجمعون على وجوب العناية بالشباب في هذه المرحلة ، فما بالك بمن يدبر أمر مملكة واسعة يتربص بها الأعداء من كل جانب ، ويدين بمذهب يخالف ما عليه الناس ، ومخالفوا عقيدته الدينية يتعقبون تصرفاته وأعماله ويحاولون تشويه كل عمل يصدر منه ، بدأ الحاكم أعماله بتغيير كبار رجال دولته وولاة الأقاليم ، وصرف كل ما كان على صلة بوصيه برجوان الذين ضج من فسادهم الناس ، ثم جعل الحاكم لنفسه مجلساً ليلياً يحضره كبار رجال الدولة وأعيانها ليتناقشوا أمامه في أمور الحكم وشئون الرعية ، فكان هذا العمل من أعجده ما قام به في أوائل حكمه مما قربت القلوب منه ، واستبشر الناس خيراً بتوليئه السلطة بنفسه ، ويروى المقرئ قصة طريفة تدل على ذكاء الحاكم ، ففي سنة ٣٩٠ هـ وبعد أن قبض على السلطة بعام واحد توفي جيش بن الصمصامة واليه على الشام ، فحضر ابنه بجميع تركته إلى القاهرة ومعه درج بخط أبيه فيه وصيته وثبت بما خلفه ، وجعل ذلك كله لأمر المؤمنين الحاكم بأمر الله ولا يستحق أحد من أولاده منه درهماً ، وكان مبلغ ذلك نحو المائتي ألف دينار ما بين عين ومتاع ودواب ، وقد أوقف ذلك كله تحت القصر ، فأخذ الحاكم الدرج ونظره ثم أعاده إلى أولاد جيش وخلع عليهم . وقال لهم بحضرة وجوه الدولة « قد وقفت على وصية أبيكم رحمه الله . وما وصى به من عين ومتاع فخذوه هنيئاً مباركاً لكم فيه » فانصرفوا بجميع التركة .

وعرفت هذه القصة عنه وانتشرت بين الناس فأدركوا أن جاكهم عفا اليدين عما عند الناس ولا يطمع في شيء من أموالهم أو متاعهم حتى لو جاءت هذه الأموال عن رضى أو عن وصية يوصى بها صاحبها ، وكانت الرعية قد شاهدت الظلم الذى حاق بها أيام وصاية ابن عمار وبرجوان كما كانت تعلم أن الملوك لا يتورعون عن سلب الأموال إشباعاً لمطامعهم الذاتية ، وأنهم لا يستحون من مصادرة الأموال واغتصاب الحقوق ، فكان لهذه القصة أثر عميق فى قلوب الشعب الذى ازداد حباً للحاكم لعفته عما فى أيدي الناس ، ولم يكن الحاكم عفيفاً عن أخذ الأموال فحسب بل عرف عنه أيضاً بعده عن اللهو والمجون وما ينصرف إليه من كان فى مثل سنه من الشباب فلم يشرب الخمر ولم يرتكب فاحشة ، وهى ناحية غريبة من ملك شاب فى بيته عرفت بحب اللهو والمجون وفى أسرة ظهر فيها أمثال عمه الأدير تميم بن المعز لدين الله الذى سجل فى شعره فجوراً ليس بعده فجور ، فانصرف الحاكم عن متعة الشباب يدعونا إلى التفكير فى حقيقة نفسية هذا الشاب ، وربما كانت صفاته الجسدية تزيد فى حيرتنا فى أمره ، فقد كان فى بسطة من الجسم مهيب الطلعة ، جهورى الصوت ذا عينين نفاذتين حتى إن المؤرخين يذكرون أن من ينظر إليه كان يرتعد خوفاً من ضخامة جسمه ، فشاب فى مثل هذه القوة الجسدية وفى ظروفه التى أحاطت به ومن أبهة الملك وجلال الإمامة ووفرة الأموال والنفائس وكثرة الجوارى الحسان ، فشاب هذا شأنه يبتعد عن ما يأتية أترابه من الشباب يجعل الباحث فى حيرة من أمره ، ولا نستطيع أن نقول إن ذلك كان زهداً من الحاكم فى متاع الحياة ، أو أن أعباءه الكثيرة التى ألقيت على كاهله صرفته عن طلب اللذة ، ولكن هناك من الأسباب الأخرى ما جعله يتخذ هذا السلوك . ومهما يكن من شيء فإن ذلك كله جعل الشعب يحب هذا الشاب ويقدر هذه الأخلاق الفاضلة ويلتف حوله .

على أن المؤرخين جميعاً على اختلاف نزعاتهم وأهوائهم جعلوا للحاكم شخصية شريرة بجانب هذه الشخصية الحيرة ، جعلوه مثل الشخصية المزدوجة التى فى قصة « دكتور جيكل ومستر هايد » إذ وصفوه بأنه كان يسرف فى سفك الدماء حتى لم يأمن شخص على حياته من أن تصيبه نزوة من نزوات شره فتطيح برأسه ،

فقد رأيناه يبدأ حياة حكمه بقتل برجوان ثم قتل بعد عام واحد وصيه الثاني الحسن بن عمار (شوال سنة ٣٩٠ هـ) دون أن يذكر المؤرخون شيئاً عن سبب مقتله ، وذهب بعض المحدثين إلى أنه أراد أن يتخلص من كبار الزعماء والقادة وخاصة من زعماء كتامة ، وأن الحاكم شاء أن يستأثر بالسلطان كله ولا سبيل له إلى ذلك إلا بالتخلص من هؤلاء الزعماء والقادة ، ثم نراه يقتل وزيره فهد بن إبراهيم وكان هذا الوزير على دين المسيحية وبالغت بعض الروايات المسيحية في سبب قتله بأن الحاكم طلب إليه أن يعتنق الإسلام فأبى ، فقتله وألقى بجثته في النار فلم تحترق !! فلا شك أن هذه الرواية صدرت عن مسيحيين كرهوا الحاكم بأمر الله فجعلوا من فهد بن إبراهيم شهيداً ، وهي رواية لا نستطيع أن نثق بها ؛ وربما ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن الوزير فهد بن إبراهيم استبد في أعماله وأثرى ثراء فاحشاً على حساب الدولة والرعية وحاجي المسيحيين وقربهم إليه وأسند إليهم المناصب الرئيسية في الدولة واضطهد المسلمين ، فكان ذلك كله سبب نقمة الحاكم عليه فقتله ، أما أنه أصبح شهيداً ولم تحترق جثته فهي من خرافات المؤرخين وما أكثر ما نراه من خرافاتهم ، على أن الحاكم لم يقتل فهداً بسبب نصرانيته ، بل نراه يقتل كثيراً من المسلمين أيضاً ولم يقل أحد إن هؤلاء المسلمين أصبحوا شهداء ، والواقع أن سياسة الحاكم نحو رجال دولته كانت سياسة عجيبة لم يخش طائفة من الطوائف الدينية التي كانت في المجتمع إذ ذاك ، ولم يقبل أن تسود طائفة على طائفة ، فالكل أمامه سواء وبالرغم من أنه كان إماماً لمذهب ديني فلم يعمل على أن يترفع أصحاب هذا المذهب على سواهم من الرعية ، وامتد بطشه إلى التجار فكان يذهب بنفسه إليهم ويضيق الخناق عليهم كلما حاولوا حجز بضاعتهم عن الناس طمعاً في زيادة الكسب كان مصير كل تاجر جشع القتل ، بل يحدثننا المؤرخ ابن إياس أنه كان يمعن في إذلال التجار الجشعين بأن يأمر خادمه مسعوداً بأن يأتي الفاحشة أمام الناس بكل تاجر يتلاعب بالأسعار ، وقال المصريون في ذلك شعراً يتنكرون به على الحاكم ، وأخشى أن تكون هذه الرواية من المبالغات التي عرف بها المصريون في نوادرهم ونكاتهم ، فشهوة الحاكم إلى سفك الدماء وشدة البطش والانتقام التي تحدث عنها المؤرخون وأصبحت مضرب المثل بين العامة إلى الآن هي عندى سياسة خاصة كان الحاكم

يرى من ورأها إلى شيء في نفسه ، حقيقة كان المجتمع في هذه السنوات فاسداً يحتاج إلى يد حاسمة قوية لإصلاحه ، ويحدثنا المؤرخون أن جميع الطوائف والموظفين ارتدعوا وخافوا بطش الحاكم حتى إنهم طلبوا منه الأمان بعد الأمان ، والحاكم يصدر لهم سجلات الأمان ولكنه في الوقت نفسه لم يقلع عن القتل والبطش ونحن ننقل هنا صورة من صور الأمان التي أصدرها الحاكم نقلاً عن المقرئ .

« هذا كتاب عبد الله ووليه المنصور أبي على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين وأمان - لنا محمد خاتم النبيين وأئينا على خير الوصيين ، وآبائنا الذرية النبوية المهديين ، صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين ، وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال ، لا خوف عليكم ولا تمتد يده بسوء إليكم إلا في حد يقام بواجبه وحق يؤخذ بمستوجبه فيوثق بذلك ، وليعول إن شاء الله » .

هذا الأمان وأمثاله الذي أصدره الحاكم يدل على مدى مخوف الناس من بطشه حتى التمسوا منه إصدار سجلات الأمان ، وقد بالغ المؤرخون في عدد من قتلهم الحاكم حتى قيل إنهم ثمانية عشر ألف نفس وهو رقم خيالي ؛ نحن لا ننكر أن الحاكم أسرف إسرافاً شديداً في عقاب الولاة والعمال ، وأنه لم يتسامح في شيء حتى قال المؤرخ يحيى الأنطاكي « وأقام له من الهيبة في نفوس الكافة لشدة سطوته وتسرعته إلى سفك الدماء وأنه لا يبتى على من صغر ذنبه وقل فضلاً عن من عظم جرمه وجل » وهذا يدل على أنه أفرط في معاقبة المخطئين حتى خافه الناس جميعاً ولم يستطع أحد أن يخرج عن الحد الذي رسمه له أو أن يعمل شيئاً يسىء به إلى غيره ، وإذا درسنا حالة المجتمع في عصر الحاكم فسترى أنه كان منحللاً انحلالاً تاماً ، فالثروة التي تدفقت على مصر في عصر الفاطميين جعلت المصريين يسرفون في البذخ والمملذات وأصبح الشعب مترفاً ميالاً إلى الانسياق في تيار المجون واللهو وقد ترك شعراء وكتاب هذا العصر آثاراً تدل على ذلك كله . بجانب الانقسام الديني الذي كان شاغل المجتمع ، كان هناك أهل السنة والجماعة يقاومون تيار دعاة المذهب الفاطمي ، وهؤلاء كانوا يشككون الناس في عقائدهم ويحاولون جذبهم إلى المذهب الفاطمي ، والنصارى كانوا من ناحيتهم يعملون للمحافظة على أنفسهم ودينهم ، وكان اليهود من ناحية أخرى يلبسون اللسائس وينفثون سمومهم بين الناس ، فكان

المجتمع مضطرباً اضطراباً شديداً ، وكان في حاجة إلى يد حاسمة تستطيع أن تجتث هذا الفساد بقوة وحزم ، وهذا ما فعله الحاكم بأمر الله ، ولم تكن قسوته هذه عن شهوة في سفك الدماء أو حباً في الانتقام الشديد إنما صدرت هذه العقوبات بعد أن رسمت سياستها في دقة ونفذت في دقة .

ويذكر المؤرخون أنه كان يأتي بأعمال لا تصدر عن رجل عادى عنده شيء من العقل ، فما بالك أن يصدر هذا العمل عن ملك مسئول عن شعبه وعن ممتلكات خارجية واسعة الأرجاء ، وكنت في صغرى أقرأ ما كتبه المؤرخون عن هذه الأعمال ولا أصدقها وأعتبرها لوناً من ألوان التهكم بالحاكم بأمر الله والتشنيع به ولكني بعد ذلك وجدت حديثاً عنها في كتب الدروز المقدسة ، والتمس لها حمزة بن علي بن أحمد مؤسس عقيدة الدروز والذي كان على صلة بالحاكم - تأويلاً خاصاً ، فاعترف بأن الحاكم أطلال شعره ولم يقبل أن يقصه ، وأنه لبس الصوف واتخذ له جبة من الصوف لم يخلعها عن جسده سبع سنوات وأنه لم يتخذ من المطايا سوى الحمير يركبها بسرج غير محلي ، وكان يقوم بسياحة يومية إلى الصحراء ، ويسير في طريق واحد كل يوم لا يسلك سواه ، وكان وهو في طريقه يقف على جماعة الصوفية يستمع إلى أغانيهم ويشاهد رقصهم ، أو يطلب من الركابية الذين معه أن يتصارعوا بالعصى والمقارع بين يديه وبلغ به الأمر إلى أن يطلب من الركابية أن يكشفوا عن سوءاتهم لينظر إليها أو يجذبها بيده ، هذه أمثلة من سلوك الحاكم تحدث عنها المؤرخون ليشبوا أنه كان مريض العقل شاذاً في كل تصرفاته ، ولا أشك أن المصريين الذين عرفوا بالنكته والفكاهة والمبالغة لم يتركوا الحاكم وهو يتصرف على هذا النحو دون أن ينالوه بالسنتهم وفكاهاتهم ووضعوا قصصاً من هذا القبيل للسخرية به وربما سمع المؤرخون هذه القصص فأودعوها كتبهم على أنها حقائق تاريخية فأصبح من الصعب على الباحث أن يفرق بين ما حدث فعلاً والذي وضع ، ولا سيما ونحن نتحدث عن الحاكم الذي رأيناه شديد الوطأة على المفسدين يسفك الدم للذنوب الكبير والصغير ثم يسلك هو هذا السلوك العجيب الذي لا يمكن أن يصدر عن رجل عاقل ، وكما قلت من قبل ما كنت لأصدق مثل هذه الأفعال لو لم يسجلها حمزة بن علي بن أحمد إمام عبادة الحاكم بأمر الله ونبي مذهبه ،

فقد اتخذ منها دلالات على صدق ألوهية الحاكم !!! وأن كل ما أتى به الحاكم هو رمز وإشارة وله تأويل باطنى لا يفقهه الناس !! وإذن نستطيع أن نقول إن كل ما صدر عن الحاكم من أعمال إنما كان بدافع واحد هو تأليهه، فالحاكم كما رأينا تولى مقاليد الحكم وهو صغير السن ، وقد أحيط بهالة خاصة مما أسبغته العقيدة الفاطمية على أئمتهم ، فتأثر بهذه العقائد التى تجعل الإمام مثلاً للعقل الكلى الذى جعلوا له أسماء الله الحسنى ، وقرأ أن بعض الفرق ألهت الأئمة فعلى بن أبى طالب وجعفر الصادق اتخذتهما بعض الفرق إلهين ، ودعاة الفاطميين فى فارس اتخذوا الأئمة الفاطميين أجداد الحاكم آلهة لهم ، ورأى حاشيته ورعيته يسجدون له كلما مر بهم ، فشاء له طموحه وهو فى مثل هذا السن الصغير أن يكون إلهاً مثل الملوك الأقدمين الذين اتخذهم قومهم آلهة لهم ، واختمرت هذه الفكرة فى نفسه ولكنه لم يعلنها إلى الناس ، ولعله أسر بها إلى بعض الدعاة حوله أو إلى بعض النفعيين الذين يتسابقون إلى إرضاء غرور الملك لمنفعة شخصية تعود عليهم ، فتسابقوا إلى إشباع نزوته وتنميتها مع مرور الأيام ، فرسموا له هذه السياسة حتى يأخذ من أفعاله صفات الإله الخالق الذى وصف بها نفسه فى القرآن الكريم فالله تعالى هو المحيى المميت الرازق الوهاب . . . إلخ ، فهاهو ذا الحاكم يسرف فى القتل ليقال إنه مميت ويرزق الناس ويهبهم ليوصف بالرازق الوهاب ، ويعفو عن من يستحق القتل ليقال إنه محيى وهكذا كان كل سلوك الحاكم بأمر الله إنما كان بدافع من فكرة التأليه ، ولم يأت هذه الأعمال عفواً إنما رسمت له ، فلم يكن عنده شهوة القتل كما يذهب المؤرخون إنما هى فكرة الألوهية التى سيطرت عليه سيطرة تامة ، ويؤيد هذا رأى ما أجده فى رسالة « السيرة المستقيمة » إحدى رسائل الكتب المقدسة للدروز فقد جاء فيها :

« لكنى أذكر لكم فى هذه السيرة وجوها قليلة العدد كثيرة المنفعة لمن تفكر فيها فأول ما اختصر فى القول ما فعله المولى سبحانه مع برجوان وابن عمار وهو يومئذ ظاهر لا يراه العامة إلا على قدر عقولهم ، ويقولون صبي السن وملك المشاركة كافة مع برجوان ولابن عمار ملك المغاربة فأمر مولانا بقتلهم فقتلوا قتل الكلاب ولم ينخش من تشويش العساكر والاضطراب ، وأما أمر ملوك الأرض فما يستجرى أحد منهم

على مثل ذلك ثم أمر بقتل ملوك كتامة وجبايرتها بلا خوف من نسلهم وأصحابهم ، ويمشى أنصاف الليالى فى أوساط ذراريهم وأولادهم بلا سيف ولا سكين ، شاهدتموه فى وقت أبى ركة الوليد بن هشام الملعون وقد أضرم ناره ، وكانت قلوب العساكر تجزع فى مضاجعهم مما رأوه من كسر الجيوش وقتل الرجال ، وكان المولى جلت قدرته يخرج أنصاف الليالى إلى صحراء الحب ويلتقى به حسان بن عليان الكلبي فى خمسمائة فارس ويقف معهم بلا سلاح ولا علة حتى يسأل كل واحد منهم عن حاجته ثم إنه يدخل فى ظاهر الأمر إلى صحراء الحب وليس معه غير الركابية والمؤذنين « إلى أن يقول مصنف هذه الرسالة « إنكم ترون من أمور تحدث بما شاهدتموها من المولى ما لا يجوز أن تكون أفعال أحد من البشر لا ناطق ولا أساس ولا إمام ولا حجة فلم تزدادوا بذلك إلا عمى وقلة بصيرة » فهذا اعتراف من إمام دعوة تأليه الحاكم بأن أحداً من البشر يستطيع أن يأتى من الأعمال ما قام به الحاكم لأن أعماله هى عمل إله !!! ! !

ثم نقف بعد ذلك وقفة طويلة مع رسالة حمزة بن علي بن أحمد الموسومة « بكتاب فيه حقائق ما يظهر قدام مولانا جل ذكره من الهزل » فقد رأيت أن أنقل هنا نص هذه الرسالة دون تعليق لأنها بنفسها تغنى عن كل تعليق ! ! قال حمزة فى هذه الرسالة :

« أما بعد معاشر الإخوان الموحدين أعانكم المولى على طاعته ، إنه وصل إلى من بعض الإخوان الموحدين كثر المولى عددهم وزكى أعمالهم وحسن نياتهم رقعة يذكرون فيها ما يتكلم به المارقون عن الدين الجاحدون لحقائق التنزيه ويطلقون ألسنتهم بما يشاكل أفعالهم الرديئة ، وما تميل إليه أديانهم الدنية فيما يظهر لهم من أفعال مولانا جل ذكره ونطقه ، وما يجرى قدامه من الأفعال التى فيها حكمة بالغة شتى فما تغنى النذر ، ولم يعرفوا بأن أفعال مولانا جل ذكره كلها حكمة بالغة جداً كانت أم هزلاً ، يخرج حكمته ويظهرها بعد حين . . . ولو نظروا إلى أفعال مولانا جلت قدرته بالعين الحقيقية وتدبروا إشارته بالنور الشعشعاني لبانت لهم الألوهية والقدرة الأزلية والسلطان الأبدى وتخلصوا من شبكة إبليس وجنوده الغوية واتصور لهم حكمة ركوب مولانا جل ذكره وأفعاله وعلموا حقيقة المحض فى جمده

وهزله ووقفوا على مراتب حدوده وما تدل عليه ظواهر أموره جل ذكره وعز اسمه ولا معبود سواه .

فأول ما أظهر من حكمته ما لم يعرف له في كل عصر وزمان ودهر وأوان وهو ما ينكره العامة من أفعال الملوك من تربية الشعر ولباس الصوف وركوب الحمار بسروج غير محلاة لا ذهب ولا فضة، والثلاث خصال معنى واحد في الحقيقة لأن الشعر دليل على ظواهر التنزيل والصوف دليل على ظواهر التأويل والحمير دليل على النطقاء (الأنبياء) لقوله لمحمد « يا بني أقم الصلاة وآت الزكاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر إن ذلك من عزم الأمور ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً ، كل ذلك كان عند ربك شيئاً محذوراً وانقص من مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » (١) . والعامة يروون أن هذه الآية حكاية عن لقمان الحكيم لولده فكذبوا وحرفوا القول وإنما هو السابق وهو سلمان وإنما سمي الناطق لولده لحد التعليم والمادة إذ كان سائر النطقاء والأوصياء أولاد السابق المبدع الأول وهو سلمان . فقال سلمان لمحمد « أقم الصلاة إشارة إلى توحيد مولانا جل ذكره ، وآت الزكاة يعني طهر قلبك لمولانا جل ذكره ولحدوده ودعائه ، وأمر بالمعروف وهو توحيد مولانا جل ذكره ، وانه عن المنكر يعني شريعته وما جاء به من الناموس والتكليف ؛ إن ذلك من عزم الأمور يعني الحقائق وما فيها من نجاة الأرواح من نطق الناطق : ولا تصغر خدك للناس الخد وجه السابق وتصغيره سترة فضيلته . ولا تمش في الأرض مرحاً فالمرح هو التقصير واللعب في الدين ، والأرض ههنا هو الجناح الأيمن الداعي إلى التوحيد المحض ، واغضض من صوتك يعني بذلك اخفض وانقص واستر نطقك بالشرعية ، إن أنكر الأصوات يعني الدعوة الظاهرة ، لصوت الحمير يعني بذلك أشر كلام وأفحشه وأنكره نطق الشرائع المذمومة في كل عصر وزمان . فأظهر مولانا جل ذكره لبس الصوف وتربية الشعر وهو دليل على ما ظهر من استعمال الناموس الظاهر وتعلق أهل التأويل بعلي بن أبي طالب وعبادته ، وركوب الحمار دليل على إظهار الحقيقة على شرائع النطقاء ، وأما السرج بلا ذهب

(١) الآية القرآنية محرفة تحريفاً شديداً جداً هنا فقد أضيفت إلى الآية الكريمة ألفاظ وحذف منها ألفاظ . (فلترجع في سورة لقمان آية ١٩) .

ولا فضة دليل على بطلان الشريعتين الناطق والأساس ، واستعمال حلى الحديد على السروج دليل على إظهار السيف على سائر أصحاب الشرائع وبطلانهم . واستعمال الصحراء في ظاهر الأمر وخروج مولانا جل ذكره في ذلك اليوم من السرداب إلى البستان ومن البستان إلى العالم دون سائر الأبواب فالسرداب والبستان اللذان يخرج مولانا منهما ليس لأحد إليهما وصول ولا له بهما معرفة إلا أن يكون لمن يخدمهما أو خواصهما وهو دليل على ابتداء ظهور مولانا سبحانه بالوحدانية ومباشرة بالصمدانية بالحدين اللذين كانا خفيين عن سائر العالمين إلا لمن يعرفهما بالرموز والإشارات وهما الإرادة والمشئة ، والإرادة هو ذومعة والمشئة تاليه ، فليس يعرفهما إلا الموحدون لمولانا جل ذكره ؛ ومن السرداب يخرج إلى البستان كذلك العلم يخرج من ذي معة إلى ذي مصة الذي هو بمنزلة الجنة صاحب الأشجار والأنهار ثم يخرج منهما إلى النفس ؛ فأول ما يلتقي بستان برجوان وهو المعروف بالحجازي فلا يدخله ولا يدور حوله في مضيه ، وهو دليل على الكلمة الأزلية ، ثم يمضي إلى البستان المعروف بالدكة وهو دليل على السابق وهو دكة العالم وعلومهم منه ، وهذا البستان المعروف بالدكة على شاطئ البحر كذلك علم التأويل ممثلة البحر ، والمستجيب للعهد إذا بلغ علم السابق ومعرفة حسب أنه قد بلغ الغاية والنهاية في العبادة ، وبستان الدكة مع جلالته ملاصق لموضع الفحشاء والمنكر دون سائر البساتين دليل على أن علم السابق واصل بالنطقاء الذين هم معادن النواميس الفانية الحشوية والأعمال الفاحشة الدنية ؛ والمقس دليل على الناطق وما في المقس من الفحشاء والمنكر دليل على شريعته ، والنساء الفاسدات اللواتي فيه دليل على دعاة ظواهر شريعته وارتكابهم الشهوات البهيمية في طاعته. ثم إنه علينا سلامه يخرج إلى الصناعة ويدخل من بابها ويخرج من الآخر. والصناعة دليل على صاحب الشريعة ، والصناعة ممنوعة من دخول العالم فيها فدخل مولانا جل ذكره فيها من باب وخروجه من باب دليل على تحریم الشريعة وتعطيها .

ثم إنه علينا سلامه ورحمته يدور حول البستان المعروف بالحجازي وهو دليل على الكلمة الأزلية والدوار حوله بلوغ إلى الكشف بلا سترة تحوط بالدين . ثم إنه يبلغ إلى القصور وهما قصران عظيمان خرابان دليل على بطلان الشريعتين وخرابهما .

ثم إنه يدخل من باب البستان المعروف بالمختص وهو دليل على التالى إذ كان التالى مختصاً بعلمه ، وأكثر العالم يميلون إليه هو هوى العالم الجرماني ، ومن الشيعة من يعتقد ويعبد التالى ، ومن الشيعة من يقول بأن التالى مولانا وهذا هو الكفر والشرك وإنما هو التالى الذى عجز الناس عن معرفته وهو الجنة المعروفة بالمختص .متصلة بالجنة المعروفة بالعصار ، والعصار دليل على الناطق لأنه يعصر علم التالى فيخرج منه الحقيقة والتوحيد فيكتمه عن العالم الغيبي ويظهر لهم الثغل وهو الكسب الذى لا ينتفع به غير البهائم . وكذلك البستان المعروف بالعصار وهو خراب من الفواكه والأشجار والرياحين والأثمار ، وبستان المختص عامر بالفاكهة والأزهار والرياحين والأشجار ومنه يخرج الماء إلى الحوض الذى تشرب منه البهائم والماء هو العلم ، والحوض هو المادة الجارية من التالى والدواب هم النطقاء والأسس وكذلك العلم يخرج من التالى إلى الأساس فى كل عصر وزمان والسابق ممد الناطق . وهذان البستانان بين المسجدين المعروفين بمسجد تبر ومسجد ريدان ، فمسجد ريدان محاذى بستان العصار ، ومسجد تبر محاذى بستان المختص ، ومسجد تبر دليل على الناطق والتبر دليل على الذهب والذهب دليل على ذهاب شريعته ، وهذا المسجد لم يصل فيه صلاة جماعة قط دليل على أن ليس للناطق ولا لمن تبعه اتصال بالتوحيد ، ومسجد ريدان دليل على حجة الكشف القائم بالسيف والعنف الداعى إلى التوحيد المنكر عند سائر العالمين ، فيلزاء الباطل الذى هو جنة العصار وهو دليل على الناطق حق يرفع وهو مسجد ريدان وهو ذومعه ، ويلزاء الحق الذى هو جنة المختص وهو التالى باطل يطلب فساد هو مسجد تبر وهو الناطق ، وريدان خمسة أحرف دليل على الخمسة حدود النفسانيين والنورانيين والروحانيين والجرمانيين والجسمانيين وهى ذومعة العقل الكلى النفسانى وذومصة النفس الروحانى والجناح الربانى والأيمن الباب الأعظم وهو السابق والتالى معدن العلوم . وما من المساجد مسجد سقطت قبته وهوى بكماله غير مسجد ريدان فأمر مولانا سبحانه بإنشاء قبته وزاد فى طوله وعرضه وسموه دليل على هدم الشريعة الظاهرة على يد عبده الساكن فيه ^(١) وأنشأ توحيد مولانا جل ذكره فيه بالحقيقة ظاهراً مكشوفة . ونزوله عن

(١) المعروف أن خمزة بن على كان يسكن مسجد ريدان هذا .

الحمار إلى الأرض وركوبه آخر محاذى باب المسجد دليل على تغيير الشريعة وإثبات التوحيد وإظهار الشريعة الروحانية على يد عبده حمزة بن علي بن أحمد ، ونزوله إلى الأرض محاذى باب المسجد إشارة منه إلى عبده باب حجابته على خلقه ونزوله عن الحمار وركوبه آخر كان في نفس أذان الزوال ، وصلاة الزوال دليل على الناطق ، وتغيير مولانا الحمار في نفس وقت الأذان دليل على إزالة الظاهر . ثم إن مولانا لا بد له في كل ركبة من الإعادة إلى البستانين المعروفين بالمقس دليل على إظهار النشء الثالث الخارج من الكفر والشرك وهما الظاهر والباطن وهو توحيد مولانا جل ذكره . ودخوله إلى القصر من الباب الذي يخرج منه والسرّاب بعينه دليل على إثبات الأمر وكشف الطرائق . وأما نزوله في ظاهر الأمر إلى مصر وما شاهدناه ففيها تمكن الشيطان الغوى من قلوب العامة الحشوية والعقول السخيفة الشرعية مما يسمعون من ألسن الركابية قدام مولانا بما يستقر في عقولهم السخيفة من كلام الهزل والمزاح ولم يعرفوا أن فيه حكمة بالغة ، فأول مسيره إلى المشاهد الثلاثة وليس فيها أذان ولا إقامة ولا صلاة جماعة إلا في الأوسط ، ثم إنه يسير إلى راشدة وهي أيضاً ثلاثة مساجد متفاوتات البنين وأحسن ما فيها وأعلاها وأفضلها الذي يصلى الخطيب فيه يوم الجمعة وتصلّى فيه خمس صلوات على دائم الأيام وهو الوسطاني وهو دليل على توحيد مولانا وإثبات خمس حدود علوية فيه ، والمسجدان اللذان معه متفاوتان في البناء دليل على الناطق والأساس ، وكذلك الناطق في ترتيب حدوده أفضل من الأساس والأساس أعظم شأنًا في ترتيب الباطن ورموزه من الناطق في المعقولات والبيان ، فلما ظهر التوحيد زالت قدرتهما جميعاً ، وسميت راشدة لأن بمعرفته الحجة وهدايته والأخذ منه يرشد المستجيبيون ثم إن علينا سلامه ورحمته يدور حول هذا المسجد الوسطاني في ظاهر الأمر دليل على التأيد لعبده ، وقدام المسجد عقبة صعبة الصعود لمن يسلكها وليس إلى القرافة محجة إلا على هذه العقبة دليل على البراءة من الأبالسة أصحاب الزخرف والناموس . وأما ما يروونه من وقوفه في الصوفية واستماعه لأغانيهم والنظر إلى رقصهم فهو دليل على ما استعمل من الشريعة التي هي الزخرف واللهو واللعب وقد دنا هلاكهم .

وأما لعب الركابية بالعصى والمقارع قدام مولانا جل ذكره فهو دليل على مكاسرة

أهل الشرك والعامّة وتشويهم بين العالم وإظهار أديانهم المغاشم ويكشف زيفهم .
 أما الصراع فهو دليل على مفاتحة الدعاة بعضهم لبعض ، وقد كان للعالم في
 قتل سويد والحمام عبرة لمن اعتبر لأنهما كانا رئيسين في الصراع ولكل واحد منهما
 عشيرة تحميه وأتباع وهما دليلان على الناطق والأساس وقتلهما دليل على تعطيل
 الشريعتين التزليل والتأويل والهوان بالطائفتين من أهل الكفر والتلحيد . وأما
 ما ذكره الركابية من ذكر الفروج والأحالييل فهما دليلان على الناطق والأساس ،
 وقوله أرني قمرك يعنى اكشف عن أساسك وهو موضع يخرج منه القدر دليل على
 الشرك ، فإذا كشف عن أساسه وأخرج قبله أى عبادة أساسه نجا من العذاب
 والزيف في اعتقاده ومن شك هلك . . . إلخ .

هذه الرسالة إحدى الرسائل التي تتضمنها الكتب المقدسة للدروز الذين اتخذوا
 الحاكم معبودهم ، وليس لنا أن نعلق على هذه الرسالة إنما أوردتها هنا لإثبات أن
 ماذكره المؤرخون في كتبهم عن سلوك الحاكم لم يكن من خيال أو أنها وضعت
 للسخرية بالحاكم ، إنما هي أفعال اعترف بها داعيته ونبيه وأثبتها في الكتب المقدسة
 التي يدين بها من اعتقدوا ألوهية الحاكم ، فنحن إذن مضطرون إلى أن نصدق
 المؤرخين في كل هذه القصص التي أوردوها عن الحاكم ولا سبيل إلى إنكارها
 أما تأويلات حمزة بن علي بن أحمد لكل هذه الأفعال فأتى التعليق عليها للقراء !
 ولكني أريد أن ألفت النظر إلى هذا الوصف التفصيلي لرحلات الحاكم اليومية فهي
 لم ترد في أي كتاب آخر غير هذه الرسالة ، فهل يمكننا أن نقول إن الحاكم كان
 يقوم بذلك كله بالاتفاق مع حمزة وجماعته ليتخذوا منها وسيلة لوضع هذا المذهب
 الجديد الذي يؤله الحاكم ؟

لم تكن هذه الأفعال هي كل ما قام به الحاكم ، بل نراه يأتي بأعمال أخرى
 تتعلق بالعقيدة الفاطمية التي هو إمامها وكان عمله مخالفاً لما جرى عليه آباؤه وأجداده
 منذ قيام الدعوة الفاطمية ، فالفاطيون أنى حلوا أقاموا الأذان حسب العقيدة
 الشيعية « حتى على خير العمل » وكان الفاطميون يصومون رمضان حسب حساب
 دقيق ليكون شعبان تسعة وعشرين يوماً ويتم رمضان ثلاثين يوماً ، وكان الفاطميون
 يسبون السلف الصالح وكان الفاطميون يهتمون بنشر تعاليمهم فكانوا يعقدون مجالس

التأويل التي عرفت بمجالس الحكمة التأويلية ، كل ذلك أمر الحاكم بإبطاله بسجل أصدره سنة ٣٩٣ هـ وربما يذهب الباحث إلى أن الحاكم كان يرمى بهذا السجل أن يذيع المساواة المذهبية بين الشيعة الفاطمية وبين جمهور أهل السنة ، ولكن ماذا نقول وقد رأيناه سنة ٤٠٠ هـ يصدر سجلاً يلغى الزكاة ثم نراه بعد ذلك يلغى التقاليد التي كان عليها أبوه وجده بالذهاب إلى صلاة الجمعة وألغى الذهاب إلى صلاة العيدين ويبطل إرسال الكسوة الشريفة إلى الكعبة ، فكل هذه الأفعال لم تصدر منه إلا توطئة لإبطال فرائض الشريعة على نحو ما نراه في الكتب المقدسة للدروز إذ نجد تأويلاً لكل ذلك ، كما أن الإشارة في كتب الدروز إلى النهي عن شرب الخمر تعطينا فكرة عن سبب محاربته للخمر ، كما أن تضييقه على حرية النساء كان مدعاة لقول بعض المؤرخين إنه كان كلفاً بالنساء إلى حد كبير ولذلك حاربهن ، وهو رأى لا يخلو من غرابة بل يدعو إلى الضحك ! ! ! ولكن إذا قرأنا رسالة النساء في كتب الدروز المقدسة ندرك سبب معاملته للنساء على نحو ما قاله المؤرخون .

أما معاملته لأهل الذمة من اليهود والنصارى ، فكانت معاملة دعت إلى دهشة المؤرخين لاضطرابها ، فحيناً كان يمنعهم من احتفالاتهم الدينية أيام أعيادهم ، ويلزمهم باتخاذ زي خاص ، بل تدخل في عبادتهم إذ منع النصارى من تقديم النبيذ في القرايين وأن لا يظهروا الصليب أو يدقوا الناقوس ، وأمر بهدم الكنائس وبيع اليهود وصادر أملاكهم ، ثم نراه في أواخر أيامه يعدل عن هذا كله وخاصة مع النصارى أما اليهود فكان يكرههم كراهية تامة ولا يطمئن إليهم في قليل ولا في كثير بل حاربهم محاربة لا هوادة فيها ، وفي الكتب المقدسة للدروز ما يفهم منه مدى كراهية الحاكم لليهود ومحاولته إبادةهم من بلاده ، فإذا نظرنا إلى سبب إعادة ما أخذ من النصارى وتغيير سياسته نحوهم فهو الاضطراب الذي حدث في مصر بسبب ظهور دعوة التآليه ، فقد رأى الحاكم أنه أغضب أصحاب الدعوة الفاطمية ، وأغضب جمهور أهل السنة. وأغضب النصارى وحقد عليه اليهود حقداً لا حد له ، وهذا كله أدى إلى قتله سنة ٤١١ هـ ، وعندى أن سبب قتل الحاكم هو مؤامرة يهودية للانتقام منه ، ولا عبرة بما قاله بعض المؤرخين من أن أخته ست الملك عملت على قتله لأنه اتهمها في شرفها ، أو ما قيل إنه اختفى ، أو أنه دخل ديراً

يتعبد فيه ، فكل هذه الروايات تضعف أمام المناقشة العلمية .

ولا نستطيع أن نختم هذا الفصل عن الحاكم دون الإشارة إلى أنه رزق بولده على سنة ٣٩٥ هـ ولكن الحاكم جعل عبد الرحيم بن إلياس ولياً لعهدده سنة ٤٠٤ هـ . بدلا من ابنه ، ونحن نعجب من هذا الاختيار الذى ليس له أساس من التقاليد المذهبية الفاطمية ، فالأصل فى الإمامة عند الفاطميين أن تتسلسل فى الأعقاب فتنتقل من أب إلى ابن ولا تنتقل من أخ إلى أخ وهذا الذى جعله الحاكم ولياً للعهد هو عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهدي فهو من فرع بعيد جداً عن سلسلة الإمامة الفاطمية التى كانت فى نسل القائم بالله بن المهدي ، فهل لتولية عبد الرحيم بن إلياس علاقة بفكرة التآليه التى كانت تسيطر عليه منذ استولى على مقاليد السلطة ولا سيما أننا نرى فى الكتاب المقدس للدروز نصاً يدعو إلى النهي عن ذكر على ولد الحاكم الذى تولى الإمامة الفاطمية بعده باسم الظاهر فى رسالة البلاغ والنهاية فى التوحيد « فالخذر الخذر أن يقول واحد منكم بأن مولانا جل ذكره ابن العزيز وأبو على لأن مولانا سبحانه هو هو فى كل عصر وزمان .

وأما من قال واعتقد بأن مولانا جل ذكره سلم قدرته ونقل عظمته إلى الأمير على أو أشار إليه بالمعنوية فقد أشرك » ومعنى هذا أن الحاكم تنكر لأبيه العزيز وتنكر لابنه على بتأثير فكرة الألوهية التى سيطرت عليه .

هذا ما أراه فى شخصية الحاكم بأمر الله فهو لم يكن مجنوناً كما قال المؤرخون ، بل كان شاباً صغير السن طموحاً إلى أكثر من الملك والإمامة ، ووجد فى كتب الفاطميين الإسماعيليين ما يحقق هدفه فعمل له بتأثير هذه الكتب ، كما وجد بعض الدعاة الذين ساعدوه على تحقيق هدفه ، فعملوا جميعاً لهذا الغرض وهو أن « الحاكم معبود » ، فكأنهم أرادوا أن يعيدوا إلى العالم النظام الثيوقراطى الذى كان معروفاً عند أكثر دول العالم القديم والذى يقضى بالاعتراف بالملك إلهاً مقدساً وقد انتقلت آراء الحكومة الثيوقراطية إلى فرق الشيعة الذين جعلوا حق الإمامة لعلى بن أبى طالب وأبنائه من بعده ، وغلا بعض الفرق فى هذا النظام الثيوقراطى بأن نادوا بألوهية على بن أبى طالب ، وألوهية جعفر الصادق أو ألوهية بعض الأئمة وها هو الحاكم يتأثر بذلك كله ويطمح فى الوصول إلى درجة التآليه ، فوجد من يساعده إلى الوصول إلى ذلك .

الحاكم عند دعاة المذهب الفاطمي

في الدعوة الفاطمية كان الحاكم بأمر الله إماماً من أئمتهم مثل غيره من الأئمة ، وهو من البشر مثل غيره من الأئمة والأنبياء ، ولكن مرتبة الإمامة وما يتصل بها من التأييد تجعله من الناحية التأويلية في مستوى أعلى من مستوى غيره من البشر ، لأن الأئمة هم حجج الله على خلقه وهم الداعون إلى توحيد الله تعالى وتزويده ، ولم يقل أحد دعاة الفاطميين في مصر إن الأئمة آلهة بل هم مثل للعقل الكلي ولهذا يقول الشاعر في إمامه :

لست دون المسيح سماه ربا أهل شرك ولا نسميك ربا

بل جعل الفاطميون للأنبياء والأوصياء والأئمة مراتب ، فمرتبة النبوة أعلاها تليها الوصاية ثم تأتي مرتبة الإمامة في آخر هذه المراتب ، أي أن الأئمة لم يبلغوا مرتبة الوصي أو النبي ، ولكنهم قالوا إن الأئمة بشر بهم في التوراة والإنجيل والقرآن وأولوا آيات الكتاب الكريم إلى أنها أنزلت في الأئمة دون أن يكون للحاكم شأن خاص ، إلا أننا عثرنا على رسالة مخطوطة خاصة بالحاكم ، هي « رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم » كتبها الداعي أحمد حميد الدين الكرمانى الذى يعرف أحياناً بحكيم الدعوة وبفيلسوف الدعوة المتوفى بعد وفاة الحاكم بعام واحد أى سنة ٤١٢ هـ . وقد استشهد الكرمانى بنصوص من الكتب المقدسة التوراة والإنجيل والقرآن في البشارة بالحاكم وليس ذلك بغريب في الدعوة الفاطمية التي تقول الآيات في الأئمة ، ثم التمس الكرمانى قوة التأييد للحاكم بما تحايل به من رموز الأعداد ، فالحاكم هو السادس عشر في ترتيب الأئمة في دور محمد ، فليس هو سابع الأسابيع وليس هو الرابع في الأسابيع ، وهما اللذان لهما قوة التأييد أكثر من غيرهما ، ومع ذلك فقد جعل الكرمانى للحاكم قوة السابع والرابع ، ولما كانت هذه الرسالة فريدة في موضوعها ولم تنشر من قبل ، رأيت أن أنشرها في هذا الكتاب ما دمنا نتحدث عن الحاكم بأمر الله ، وهذه الرسالة وثيقة تاريخية هامة إذ ترينا في مقدمتها كيف أن الكرمانى عند ما وفد على مصر سنة ٤٠٨ هـ . وجد اضطراب الأحوال واختلاف

الدعاة بسبب ظهور هذا المذهب الجديد الذى يدعو إلى تأليه الحاكم ، فأراد أن يثبت قلوب المؤمنين بأن الحاكم إمام وأن الكتب السماوية بشرت بإمامته ، وأن الحاكم يدعو إلى توحيد الله وتنزيهه وإلى الصراط المستقيم ، ويقيم شعائر الدين الإسلامى فإنه ثمرة دوحه النبوة فكان عايه أن يثبت أصول هذه الدوحة ، كل ذلك إنما قصد به الكرمانى إلى دفع هذه الآراء الجديدة التى طرأت على المجتمع فحدث بسببها هذا الاضطراب الذى أشار إليه ، حقيقة لم يصرح الكرمانى بألوهية الحاكم أو غيره من الأئمة ولكنه جعل للحاكم منزلة أعلى من منزلة البشر ، والكرمانى فى ذلك مثل غيره من دعاة الفاطميين الذين أرادوا الغلو فى أئمتهم ولكنهم كانوا حريصين أشد الحرص على عدم التصريح بذلك ، بل أداروا حول فكرتهم واثمسا لها تأويلات خاصة ، ولكن النتيجة النهائية لفكرتهم هى التأليه .

رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم بأمر الله لحجة العراقيين أحمد حميد الدين بن عبد الله الكرمانى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب الأرباب ، ومالك يوم الحساب ، الذى جعل السماء سقفاً محفوظاً ، وما بينها وبين الأرض بعين الفناء ملحوظاً ، فحكم بأن لا يبقى إلا وجهه الكريم ، جعل الأفلاك على اختلافها مجذور سبعة ، والشريف منها مقصوراً على تسعة ، دلالة على ينبوع من أرباب التأيد ، وإشارة بها على الميامين من أركان التوحيد ، الذين عمروا طرق الهداية بإقامة الدعاة ، ورعوا عباد الله بالكفاة الرعاة ، وأحمدوه وأشكروه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مكون الأكوان ومبدئها ومصرم الأزمان ومفنيها ، وأشهد أن الأبطحى المدنى محمداً عبده ورسوله أضاء عالم الدين بالأنجم الزاهرة ، وأشرق بمطالعه بالأنفس الطاهرة ، فوعظ وبشر وأنذر ، وفارق العالم وقد قضى حق الرسالة بإقامة سننها فى نصب الإمامة فصلى الله عليه صلاة تنمو وتزيد ما أحاط عقل بمعقول وانتهت علة إلى معلول ، وعلى وصيه وقاضى دينه وهادى أمته والصابر على ألم المفضض وفاء بعهد الله عز وجل على بن أبى طالب والأئمة من ذريتهما السلام .

وخص الله الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين من أطايب سلامه ونوامى تحياته بما يعلى جده فى العالمين ويرفع منزلته على الباقيين إنه قدير .

(أما بعد) فإنى لما وردت الحضرة النبوية مهاجراً ، وللسدة العلوية زائراً ، ورأيت السماء قد أظلت بسحاب عميم ، والناس تحت ابتلاء عظيم ، والعهد فى الرسوم السالفة قد نقض ، وعن أولياء الدين بما كسبت أيديهم قد أعرض ، والرسم فى عقد مجلس الحكمة جرياً منهم بالإحسان قد رفض ، والعالى قد اتضع ، والسافل منهم قد ارتفع ، وشاهدت أولياء الدعوة الهادية بسط الله أنوارها ، والناشئين فى عصمة الإمامة وأولى ولائها قد حيرهم ما يطرأ عليهم من هذه الأحوال التى تشيب

لها النواصي ، وبهرهم ما تجدد لهم من الأسباب التي لا يهلك بها إلا أولوا النفاق والمعاصي ، وهم يومئذ يمجج بعضهم في بعض ويرى كل منهم صاحبه بفسق ونقض تتلاعب بهم الأفكار الرديئة وتتداولهم الوسوس المردية ، ثم لا يعلمون ما أظلمهم من الدخان المبين ، ولا ما ألم بهم من الامتحان المستبين ، فصار البعض منهم في الغلو مرتقين إلى ذراه ، والبعض في النكص على أعقابهم تاركين عصمة الدين وعراه ، والقائل منهم قد تزعزع أركان اعتقادهم وما قبلوه من الدين باختيارهم وارتياحهم ، وهم على شفا انحلال وحؤول واختلال وأعناق أولى الطرفين من الأبالسة إلى اختلاسهم ممتدة ، وهما في اصطياحهم عن اعتقادهم محتدة ، والآحاد منهم قد رضوا من أنفسهم لأنفسهم ، إذ تخلصت نفوسهم مكتفين بقول الله تعالى « لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » (آية ١٠٥ سورة المائدة) .

حملني فرط الشفقة في الدين على أن أناجي الإخوان المستضعفين من دون من فسد جوهره بما حدث فيه من المقال ، وانعكس عنصره بما تشرب قلبه ماء المحال فصار كالفضة المحرقة التي لا تعود إلى فضيتها بصناعة ، وإلى حالتها الأولى وإن تعنى بفضل جهد واستطاعة ، بما يكون تقوية لقلوبهم وتثبيتاً لأقدامهم من بيان إمامة الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وصدقها ، والبشارات الواردة من الأنبياء عليهم السلام وإشاراتهم بحققها ، وما ينجز الله تعالى له وعده ، ويقرنه به من الأمر في قبله ببعده ، والكلام على الأسباب العارضة وأنها ليست إلا لما يريد الله من تصديق قول أنبيائه بقيام ما قالوه مقام الصدق ، وما هو إلا إمارات تقوم مقام النص بأنه ولي الحق ليزادادوا إيماناً بالله تعالى وبوليّه عليه السلام إيقاناً ، وأن اجعل ذلك في رسالة جامعة ففعلت ، وكتبت هذه الرسالة ، ووسمتها « برسالة مباسم البشارات » لكونها بما تجمعها من البشارات والإشارات وحسن المعاني وما توافق به من فصولها للعدد الشريف من السبع المثاني ضاحكة المباسم شاهرة المواسم وهي تشتمل على أربعة عشر فصلاً ، وبالله التوفيق وبه أستعين في إتمامها وبلوغ المراد فيها ، موقى من الدلل إنه قد ير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

(الفصل الأول) نقول إن إمامة الأئمة عليهم السلام ليست متعلقة بإثبات المثبتين إياها ، فتبطل إذا لم يشبثوها بل إمامتهم أثبتتها المثبتون ، أو لم يشبثوها فهي

ثابتة والله سبحانه أثبتها لكن للدالين عليها والداعين إليها ، وإن كانوا وسائط فيما بين الأئمة وبين الأمة فضيلة لا تنكر ومشوبة عظيمة لا تكفر يستحقونها من وجهين اثنين أحدهما هو دفع سيئة وثانيهما هو إيلاء حسنة وكلا الوجهين يكسبان الفضيلة والأجر فأما الوجه الذى هو دفع السيئة فهو أن جوهر الإنسان أجل الجواهر الطبيعية شرفاً في تهيئته لقبول ما يفاض عليه من المعارف وأعظمها استعداداً للتصوير مما يلحق ويعلم من المعالم وهو في بدء وجوده كالشيء الذى لا صورة له أو كالعريان الذى لا لباس له مشتاق إلى المعارف التى هى الصورة محتاج بالقياس احتياج العريان إلى اللباس وهو في تلك الحالة يستمد صور الأشياء والمبادئ بحسب ما يتفق له من المعلم الهادى فإن كان موثقاً من الله وله سعادة واتفق أن يكون المعلم موثقاً خيراً أخرج بما يستمليه منه موثقاً وإن كان بالعكس فبحسبه ولذلك قال النبي (ص) كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ؛ دالا بذلك على أن جوهر الإنسان في الأصل إنما أخرجه الله تعالى إلى الكون ليكون صالحاً موثقاً شريفاً فاضلاً وأنه بعد الولادة صالح ما لم يهود أو ينصر أو يمجس وذلك أن الأنبياء (ص) دعوا الناس بجميع ما جاءوا به من الكتاب المبين ورسوم الدين إلى توحيد الله تعالى وطاعته وعبادته لا إلى غيرها فجعلوا لذلك طريقة من لزمها لم يلق إلا خيراً ، وله صراط مستقيم من تعداه لم يكتسب إلا كفراً فلما تعدوا ما رسموه ، وخالفوا الأمر فيما نصبوه ، واختلف الناس بتركهم الطريق والطاعة لله تعالى من حيث أمر ، حدث منهم اليهود والنصارى والمجوس ، فلما حدث من الأمم التحزب بالقعود عن طاعة أولياء الله تعالى ، وحدوده في الإعصار الحالية ، وكان دور محمد (ص) آخر أدوار أصحاب الشرائع بانتهائه إلى الكمال الذى لا يحتاج معه إلى تغيير بزيادة أو نقصان وجب أن يؤدي لكونه كاملاً صورة ما تقدمه من الأمور كما أدعى الإنسان لما كان النهاية إليه في الحلقة والكمال في ذاته صورة ما تقدمه من الموجودات ، وكان جامعاً له ولذلك قال النبي (ص) « كائن في أمتي ما كان في الأمم الحالية » وقال « كائن في أمتي ما كان في بني إسرائيل حنو النعل بالنعل والقذة بالقذة حتى كأنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » فافترقت الأمة المسلمة بعد نبينا كما افترقت الأمم الحالية بتركها ما أمر الله به من طاعة من اختاره لهدايتهم فصارت كل فرقة بما اعتقدته

مشابهة لأهل كل نحلة خارجة عن الإسلام من الذميين والكافرين وحدث عن ذلك في الأمة المسلمة اليهود والنصارى والمجوس بمشابهتهم إياهم في اعتقادهم (١٣) تصديقاً لقول النبي (ص) حين قال وأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه فكان المشابه لليهود من المسلمين من ضاهاهم في تركه طاعة حدين عظيمين من حدود الله تعالى مثل طاعة عيسى (ص) ومحمد (ص) وإقرارهم موسى (ص) ومن تقدمه من النبيين (ع) وهم النواصب ، الذين تركوا في الإسلام طاعة حدين عظيمين من حدود الله مثل طاعة الوصي وإمام كل زمان وأقروا بمحمد (ص) ومن تقدمه من النبيين (ع) ومن يولد لهم يهودونه بمعنى يبغضون إليه اعتقاد الولاية للوصي والإمام (ع) كاليهود في معنى عيسى ومحمد (ص) والمشابه للنصارى من المسلمين من ضاهاهم في تركهم طاعة حد عظيم من حدود الله تعالى مثل طاعة محمد (ص) وإقرارهم بحدين عظيمين وهما موسى وعيسى (ص) وبغيرهما وهم القطيعة الاثنا عشرية الذين تركوا في الإسلام طاعة إمام الزمان (ع) وأقروا بمحمد (ص) وولاية علي بن أبي طالب أو من تقدمهما من الأنبياء والحدود (ع) ومن يولد لهم ينصرونه بمعنى يصورون له ما هم فيه من البغضاء لطاعة إمام الزمان الذي هو تمامية طاعة الله تعالى كما يفعل النصارى بولده في باب محمد (ص) والمشابه للمجوس من المسلمين وضاهاهم في كونهم لا من اليهود ولا من النصارى ولا من المسلمين هم المعتزلة الذين لا يعبدون الله باعتقاد أهل الظاهر ولا باعتقاد القطيعة ولا باعتقاد المطيعين لصاحب الزمان من المؤمنين كما لا يعتقد المجوس ، لا اعتقاد اليهود ولا اعتقاد النصارى ولا اعتقاد المسلمين ومن يولد لهم يصورونه بصورهم كما يفعل المجوسى بمن يولد له ، ولما كان جوهر الإنسان أشرف الجواهر فكانت السيئة التي تطمس ضياءه وتهلك نوره وبهاؤه تبعد ، من الله ومن رسوله اعتقاد إمامة من لم يجعل الله له نوراً وجعله وتابعيه قوماً بوراً ، كان منع الداعي ذلك الجوهر من اجتراح هذه السيئة التي تكشف بآله ، وتعيد كأرذل الأشياء حاله وهي منه كالصداً في الحديد والكسر في الدر والقتل في النفس وصدده إياه عن اعتقادها بأن يبين بطلانها وما يكون للأنفس باعتقادها من خذلانها هو دفع السيئة عنه ، وإذا كان ذلك دفع سيئة كان الأجر عليه واجباً يستحق به الفضيلة ، وأما الوجه الآخر الذي هو إيلاء حسنة هو أن جوهر الإنسان

لما كان في كونها منهيّاً للقبول على ما ذكرناه وكانت الحسنة التي تكسب النفس الشرف والرفعة والزلفة وهي منها كالحياة في النفس والصحة في الجسم والجلاء في المرأة اعتقاد إمامة من جعل الله فيه شرفها وأعلى درجته بما أولاه من مجدها وجعله وسيلة تنال الخيرات بسببها بكونه سبباً إلى الاتصال بالله تعالى من جهة حدوده كان إفادة الداعي ذلك الجوهر هذه (٣ ب) الفضيلة التي يصير بها وباعتقادها موسوماً بوسم الله ومرقوماً برقم أرباب التأييد من جهة الله فيكون في أفق العالم النوراني الذي هو مقر الأنبياء والأوصياء والأئمة الأبرار والعباد الصالحين الأخيار وأصحاب المعاد مقبولا مكرماً وأفاضة النعمة عليه بأن يعلمه إياها ليعتقدها هو إيلاء الحسنة وإذا كان ذلك إيلاء حسنة كان الأجر عليه واجباً يستحق به الفضيلة فلذلك قال تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » والحسنة لما كانت على ولاية الأئمة (ع) كانت لمن يعتقدها باباً يؤديه إلى معرفة الحدود العشرة في العالمين نفسانياً وجسمانياً الذين هم ملوك القدس والتأييد وبنابيع الحكمة والتوحيد فترتع نفسه في أزهار العلوم وتشرف بها على توحيد الحي القيوم ، وإذا كان الداعي يستحق على فعله ذلك الأجر والمثوبة والدرجة والرفعة فبالحرى أن يصرف من رفع الله ووليه قدره الفكر إلى ما يحفظ به عقائد المؤمنين من تبصيرهم وتقوية منهم وتثبيت أقدامهم على طاعة الله تعالى وطاعة وليه محتسباً للأجر من جهة ولي نعمته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم جلعنا الله وجماعة المؤمنين ممن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

(الفصل الثاني) نقول إننا وإن كنا قد دللنا على أمر الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين (ص) في إمامته وكوذه صادقاً في سفارته في كتابنا المعروف بالمصابيح (في الإمامة) بالواجب وذكرنا في الرسالة الكافية ردّاً على الهاروني الكاذب زيادة على ما أوردناه تقسيماً للأمر في إمامته حتى خلص إلى القسمة التي لا يشك فيها بقولنا إنه لما كان الإمام إمامين إمام حق وإمام ضلال ، وكان إمام الضلال إما أن يكون منتصباً من تلقاء ذاته أو منصوباً من جهة الناس وبطل أن يكون الإمام (ع) ممن نصبه الناس أو انتصب من تلقاء ذاته ثبت بكون الإمام إمامين إمام حق وإمام ضلال وبطلان إمام الضلال أنه إمام حق يهدي بأمر الله ،

وعارضنا على أنفسنا في ذلك وبرأنا ساحتنا من قضية المعارضة بما نطق ببطلانها وأسفر عن افتراض طاعته (ع) معها ، فريد أن نستشهد لإخواننا حرسهم الله من الدلائل على أنه من أيام الله تعالى يوم بشر به النبيون واستبشر به الأولياء المخلصون وهو يوم الفتح الذي تمنى الكون في زمانه القرون الخالية وتصبح أتباعه معه وهم المغبوطون عند الأمم السالفة وتمسى فيه أعداء الله على وجوههم غيرة ترهقها قرة وذلك بأنهم كفرة فجرة ما يكشف لهم ما أظلم ويبين لهم ما استبهم ليزداد به ثقة من عرف ويتقوى به اعتقاد من استضعف بقوة الله وبقوة وليه (ع) نقول إن الأكوان في العالم من شأنها لما كانت (١٤) لا تكون إلا بزمان أن تكون في بداياتها ضعيفة ناقصة فتتحرك بالزمان والوسائط إلى القوة والتمامية التي هي عين الغرض فيها وفي حالها تلك وانتقالها من الضعف إلى القوة ومن الخسة إلى الرفعة تنطوي عليها أسباب الضعف والقوة حتى تكون تارة ضعيفة ناقصة وتارة قوية تامة ولما كانت الشرائع والرسوم والوضائع من الصنائع النبوية وكانت لاستجلاب الخيرات ما وضعت ولدفع المضرات وكانت مقترنة بالزمان وغير منفكة مذ لزمها ما يلزم غيرها من الضعف والقوة ولما لزمها الضعف والقوة وكانت لاستجلاب الخيرات ودفع المضرات ما وضعت كان من ذلك الحكم بأنها متى ضعفت قل الخيرات ومتى قويت عم البركات ، وأن ضعفها لن يكون إلا من جهة أعدائها بضعف أوليائها ، وقوتها لن تكون إلا من جهة أوليائها بضعف أعدائها ، ولما كان ذلك كذلك وكانت الشرائع والوضائع من ذواتها لا تتقوى إلا بقوة القائمين بها من الأئمة (ع) وضعف أضدادهم ولا تضعف إلا بضعفهم واستعلاء أعدائهم وكان الأمر في قوتها متعلقاً بهم وبحسب تمكنهم من إمضاء أمر الله وكانت مراتب الأئمة (ع) في باب النصره لراية الحق وإعلاء كلمة الصديق متفاوتة بحسب المساعد الزمانية وما يأتيهم من بسط القوة بموازاتهم للمبادئ الشريفة على النسبة الأفضل وكان منهم من يتعسر عليه الأمر في أكثر أحواله لا لتقصان في مرتبة إمامته لكن بحسب المناحس الفلكية المتعاقبة بالزمان الموكل بالأكوان مثل ما تعسر على الوصي والأئمة والصدر الأول منهم وعلى الأنبياء (ع) أمورهم ، ومنهم من تيسر له ما يريد وواتسع إمكانه بحسب مساعدة الزمان إياه مثل المنصور بالله والمعز لدين الله وغيرهما فيطرد الأمر بين

يديده لمصادفة الأمر زمانه الذى به يتعلق كونه فلا يستأخر ولذلك قال تعالى : « ماتسبى من أمة أجلها وما يستأخرون » وكل منهم قائم فى زمانه وقائد لأهله وحجة لله تعالى على خلقه ، وكان مقدراً أن يكون دور محمد (ص) أعظم الأدوار مدة يكون شريعته من التمامية فى نهايتها وفى غاية لا يحتاج معها إلى تغيير ونسخ وتبديل إلى القيامة ومقدراً أن يكون فيه أئمة كثيرون عليهم السلام مضعفة لما ثبت من أعداد كل دور ، وأن تكون لهم قوة وضعف فى الأعصار بحسب الزمان وتنقله إلى أن ينتهى إلى القيامة الموعود بها وهو اليوم الآخر ، قلنا إن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله (ع) فى كونه إماماً فى وقته وقائماً فى زمانه وقائداً لأهله وشفيعاً للمتعلقين بحبله وإن لم يكن سابعاً من (٤ ب) الأسابيع فله من القوة والتأييد الممتد إليه من جهة الله بموازنته ، للأعداد التى من شأنها إفادة التمامية ومناسبتها إياها ما يخدمه بإذن الله الفلك بأجرامه والزمان بشهوره وأعوامه فينجز الله تعالى به وعده لمحمد جده (ص) بقوله تعالى : « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » أى نطوى ذكر الإمام الضال ودولته كما طوى الغاصب الظالم ذكر أئمة الحق ونعيد الأمر فى كونه كلياً فى بيت محمد (ص) كما كان بدايا فيملك المسلمين بأسرهم كما ملكهم النبي (ص) فى زمانه ويفتح الله له من الفتوح ما يتعسر به جد إبليس وأهله ويستأصل شأفة الضلال وأصله وإن الشهادة بصحة قولنا ذلك من أقاويل الأنبياء (ع) ومن رموز النبي (ص) والدلائل القائمة بما تتضمنه الفصول التالية من الشرح والنص ، وأول ما ينطق بصحة ذلك وأنه عليه السلام المبشر به المنصوص عليه بالعلامة قول إيشاعيا النبي فى التوراة مخاطباً للدعاة بالرمز بشارة لهم حيث يقول : (كلى ماوديث ^(١) صبوت ^(٢)) هو ربيعى بث بروشديم) ، افرح واشكر رعاة بنات هبوت ^(٣) (ملكح بور بولوح) ^(٤) صديق بيت المقدس فإن ملكك (ويسوع عولى هينى وروخيت على حمور) قد جاءك صادق مطهر من الأدناس وعلى عابر بن اثرتون زاهد وراكبا على حمار الوحش والأتن « فهل الرعاة إلا الدعاة وهل البنات إلا المؤمنون وهل بيت المقدس الإمام وهل ما قاله من العلامة

(١) ا : ودبث (٢) ا : صوت (٣) ف : مبوب

(٤) ف : ملكح يربولح

بشارة للدعاة بقوله فإن ملائكتك قد جاءك صادقاً مطهراً من الأدناس زاهداً راكباً على الحمار وعلى العير الآن إلا ما عليه حال الإمام (ع) فأى دلالة أصدق وأوقع للحس من قيام ما قاله فيه من ركوب الحمار وزهده ، إن للمعتزلين عن اعتقاد إمامته قلوباً قد طبع عليها فهم لا يفقهون ، عصمنا الله بطاعته وتوفانا على اعتقاد إمامته بمنه ورحمته .

(الفصل الثالث) نقول قد يقع الظن بأن الذى قاله إيشاعيا (ع) من هذه البشارة التى ذكرناها هو بشارة بعيسى (ع) بكونه راكباً للحمار زاهداً من دون غيره والذى يبين أن الإشارة بقوله ذلك فى هذا الموضع هى بالإمام (ع) من دون عيسى (ع) ويؤيد الحكم ويقطعه قول إيشاعيا ثانياً إنه يهلك المفسدين ويفنيهم بريح شفتيه حيث يقول مخبراً عن أفعال الزاهد الراكب الحمار الذى بشر به وشوقا طه^(١) بصدق - ولیم وهو حیح بمیسور لمعوى^(٢) ويقضى بالصدق والعدل للضعفاء والفقراء وبريح الخواص المتواضعين أورص وهکتوا برص سبط^(٣) سود بر دج شفتوتو الأرض ويضرب الأرض بعصى فه وبريح شفتيه (١٥) يوميت روسوع يميت المفسدين ، ثم كون عيسى (ع) من هذه الأفعال خالياً من الشهادة العظمى بأن البشارة ليست به إذ لم يبق فى قومه فبقال إنه يحكم بالصدق والعدل ولم يقتل أحداً ولا أمات مفسداً ولا أمر بذلك فيقال إنه قتل وأمات وإذا كان ذلك كذلك وخلا عيسى من أحكام هذه الأفعال خلصت هذه القضايا التى حكم أشاعيا (ع) بها للحاكم (ص) بقيام إماراتها فيه إذ هو الزاهد الراكب الذى قد أفنى المفسدين ويفنيهم أبداً بحركة شفتيه بقوله خذوا رأس فلان أو اقتلوه بعصيانهم وإفسادهم ، ولم تصح إلا فيه إن ذلك لشيء عجاب ثبتنا الله على طاعته ولا حرمانا فضل شفاعته بمنه .

(الفصل الرابع) نقول إن الكون كونان : كون طبيعى وكون نفسانى ، فالكون النفسانى لن يكون إلا بالكون الطبيعى والكون الطبيعى لن يكون إلا بمطارح الأشعة الساطعة من الأجرام السماوية فى الأجسام الطبيعية النافذة فيها على حسب الأجسام المشقة على

النسبة الأفضل ومحاذاة تلك الأجرام بعضها في ممراتها بعضاً على أتم ما يكون من الموافقة والمضادة ، ولا كانت لا تحدث الأكوان إلا بوقوع موافقة بين تلك الأسباب الفاعلة وبين الأشياء المنفصلة بحسب مناسبتها للأعداد الشريفة التي هي المبادئ في وجود ولا ينفك شيء منها مثل الفرد البسيط والفرد المركب والزوج البسيط والزوج المركب والحادث عن ذلك من الأعداد الشريفة مثل الستة والسبعة وغير ذلك الدالة على السابقات في الوجود والتاليات في التركيب وكان شرف الأكوان بحسب ما يناسبه من تلك الأعداد والحادث عنها مثل العدد الشريف القوى الذي هو الزوج المركب لما ناسب موسى (ع) إياه في كونه رابعاً من النطقاء ثم له (ما) ^(١) لم يتم لأحد من النطقاء ، ولا ناسبه الإمام محمد الباقر (ع) بكونه رابعاً من الأئمة فعل من بث العلم ما لم يفعل غيره ولما ناسبه المهدي بالله بكونه رابعاً من الأسبوع الثاني ظهر بالسيف وتم له ما لم يتم لغيره ممن تقدمه ، ومثل الستة التي هي عدد تام شريف لما ناسب محمد (ص) إياه في كونه السادس من النطقاء كان تاماً شريفاً وكان وضعه حاوياً لجميع الشرائع وتاماً فلن يغير ولن يبدل كما تمت الدائرة بالتقاسيم الستة التي هي ميزانها ، ومثل السبعة التي هي عدد كامل شريف ^(٢) متناهي لما كانت في القوة بكونها جامعة للبسيط والمركب تامة صارت قوة الأنفس وضعفها لا تظهر من العليل إلا في مثل الأيام التي تناسب هذه العدة وهو البحران ولا تظهر القوى النفسانية إلا فيمن يكون مناسباً لهذه العدة الشريفة مثل الإمام المعز لدين الله (م) لما ناسب بكونه سابعاً من الأسابيع هذا العدد الشريف تم له من الأمر ما لم يتم (هـ ب) لمن تقدمه ومثل اليوم الآخر في آخر الزمان وهو القيامة الكبرى وإليه الدعوة بكونه سابعاً ^(٣) مناسباً لهذه النسبة الشريفة يصير له من القوة والشرف ما لا يدانيه أحد ممن تقدمه ، قلنا إن مناسبة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله في كونه سادس عشر الأئمة لمحصل الأربعة الشريفة من ضربها في ذاتها الذي هو ستة عشر وموازاته للثمانية بكونها ضعفها التي تلي من جهة أربعة ومن جهة سبعة ومن جهة تسعة وكون جميع ذلك مناسبات شريفة عظيمة تدل على أنه يتم له في الإسلام ما لم يتم لأحد ممن تقدمه وبمناسبه للثنتين بكونه ثانياً من الأسبوع الثالث يدل على هلاك أم

(٢) سقطت في ١

(١) سقطت في ١ (٢) سقطت في ١

على يده كما هلك من أصحاب نوح (ع) الذي هو ثاني النطقاء وموافقته ذلك وشهادته بما تقدم^(١) مما يكشف الشك ويقوى الأمل ، عرفنا الله تعالى بركة أيامه ولا حرمانا حسن إنعامه وحشرنا معه ومع آله المعصومين من أبنائه بمنه وطوله .

(الفصل الخامس) ومن عجيب الدلالة على صحة ما أوردناه من شهادة النبي (ص) أنه لما علم أن الأمر بعده يتداوله كل ناعق وناعر أيد عزائم ذوى الإيمان بقوله : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم فيخرج من ذريتي من يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً » دالاً بذلك على أن لا بد من انتقال الأمر إلى الذرية الطيبة وإن تداولته الأمة الغاصبة ليكون بشارة لهم وفرحاً ، ودل (ص) على من يكون انتقال الأمر إليه من ذريته وطاعة الجماعة له من ولى وعدو ، وبرمز خفي فقال (ص) « اطلبوا ليلة القدر في العشر الثالث من الصوم فإن^(٢) فيها تنفتح أبواب السماء وتضيء الدنيا وتسجد الشجر والمدر والحائط والرابط » ثم أشار من العشر الثالث إلى ليلة الثالث والعشرين من رمضان فلما دل (ص) على ليلة يصير كل شيء فيها ساجداً لله تعالى وكان المعنى أنه يخرج من ذريته من الأسبوع الثالث من يطيعه أهل الإسلام وليهم وعدوهم تأملنا بحثاً عن الوجه الذى ينطق بذلك فجعلنا أيام الشهر لما كانت بثلاثة أقسام عشر أول وعشر ثان وعشر ثالث وكل قسم بإزاء مرتبة من المراتب الثلاث التى هى النبوة والوصاية والإمامة مقسوماً على ثلاثة أسابيع من الأئمة (ع) وكانت ليلة الثالث والعشرين المخصوصة المنصوصة عليها بأن يسجد فيها كل شيء على السادس عشر من الأئمة (ص) وكان ذلك دليلاً ناطقاً بانتقال أمر الإسلام والمسلمين إلى الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وانتظام الأمر فى ذرية محمد (ص) بالكلية وطاعة الأمة وليها وعدوها له بأسرها وموافقة ذلك لما تقدم شهادة صادقة بما قلناه ، والله الحمد .

(الفصل السادس) ثم إن أول الدلائل على ما ذكرناه ظهور آثار (١٦) ما نص الله تعالى عليه فى كتابه بقوله « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم » مخاطبة لمحمد (ص) والمعنى للتابعين له من جهة أساسه

وأئمة دوره أى انتظروا من الأئمة التى هى أيام الله الإمام الذى يكون من أفعاله أفعال مظلمة تحير العقول وتلك الأفعال عذاب وامتحان لأهل الدعوة عظيم ففى زمانه عقب الفترة ينجز الله وعده ، وتنكشف الظلمة ويعود الحق بكلية إلى بيت النبوة وذلك قوله « فارتقب » فأى إمام ظهر من أفعاله ما ظهر من الإمام (ع) من الأفعال التى قد حيرت العقول وأظلمت المقاصد فى البحث عن الغرض فيها وأى دخان أعظم مما عم المؤمنين وهل ذلك الامتحان به يهلك الفاسق ويثبت عليه الصادق ، فوجود ما قيل فيه وقيامه مقام الصدق مع سابق الشواهد وتوافقها من أمارات الحق حرسنا الله وجماعة المؤمنين على الطاعة والتسليم إنه رءوف رحيم .

(الفصل السابع) ثم إن الله تعالى قد أشار إلى مثل ذلك فيما تقدم ذكره فقال « يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن » وقال « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » قالوا فى التفسير إن يوم القيامة تصير السماء كهيئة عكر الزيت وكالرصاص المذاب وأن الجبال تصير فى هيئة الصوف المصبوغ المندوف ، وقد قلنا فيما تقدم إن كل إمام قائم فى زمانه وإن دور محمد (ص) يجمع آئمة كثيرين ، ونقول إن كل إمام قد قدر أن يكون على يده أمر من الأمور فى قوة يظهرها عقيب فترة تقع ويهلك به قوم بتمردهم فهو من الأيام التى سماها الله فى كتابه مثل « يوم القيامة » « يوم لا ينفع الصادقين صدقهم » « يوم يأتى بعض آيات ربك » « يوم يأتى تأويله » « يوم يحمى عليها فى نار جهنم عذاب يوم كبير » « هذا يوم عصيب » « يوم لا بيع فيه ولا خلال » « يوم يبعثون » « يوم الوقت المعلوم » « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها » « من مشهدياتهم عظيم » « يوم الزينة » « يوم ينفخ فى الصور » « يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيرا » « يوم الوعيد » « يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً » « يوم الجمع » « يوم التغابن » « يوم الفصل » « يوم يقوم الروح » « يوم ترجف الراجفة » « يوم الدين » « يوم التلاق » « يوم يسمعون الصيحة » « يوم التناد » « يوم الفتح » « اليوم الآخر » وغير ذلك مما هو فى القرآن ولا يجب أن يعتقد إذا ظهر فى أحد هذه الأيام قوة سماوية ومواد إلهية أنه صاحب القيامة الكبرى الذى لم يحل وقته ولم يحى زمانه إذ ذلك لا يكون إلا بعد مضى حدود دور محمد (ص) بنامها وكماها فعلى رأس ذلك الحد الذى هو فى آخر الحدود

وبه تمامية حدود دور النبي محمد (ص) تكون القيامة التي حكم النبي (ص) بامتداد حسبه ونسبه إليها بقوله « كل حسب ونسب منقطع إلا حسبي ونسبي فلنهما باقيان إلى يوم القيامة » وسيكون للسادس عشر والثامن عشر والحادي والعشرين إلى تمة الحدود شأن من الشأن فالسواء على (٦ ب) الإمام وظاهر الشريعة وأحكامها ومصيره كعكر الزيت استحالاته عن نظامه الأول بوقوع فترة^(١) وضعف ، والجبال على أركان الدعوات^(٢) في الجزائر ومصيرها كالعهن انحلال نظامها حتى تنتهي في الاضطراب إلى حد لا تبقى على رسومها الأولى^(٣) فهل كان ذلك لإزماننا الذي صار سماءنا فيه على الحالة التي نشاهدها في ظاهر أمرها ، وجبالنا التي هي الدعوات^(٤) وأهلها في الجزائر قد صار أمرها في الرخاوة وانحلال النظام بكون المؤمنين^(٥) عليها عوناً على تخريبها إما بقلّة العلم والورع أو بفرط^(٦) الشره والطمع في النهاية التي لا بعدها نهاية^(٧) فصارت الجزائر خالية من هاد الله تعالى على طريق الديانة وطلب وجه الله . فهذه كلها مواعيد قد قامت شواهدنا وظهرت إماراتها . عرفنا الله خير هذه الأيام وبركتها وختمها بالسعادة وأعاننا على طاعة وليه بمنه وقدرته .

(الفصل الثامن) نقول : إن من المعام أن الشيء القائم عليه الدلالة بشيء ما إذا أعطى من ذاته شهادة بما قام عليه من الدليل من خارجه وتوافقت الشهادتان فهو حق لا ينكر ، ومما يعطى أمير المؤمنين (ص) من نفسه شهادة على ما قام من خارجه من الدليل عاينه قوله في آخر سجل ورد نواحي فارس على موسى بن داود جواباً عما كان اختاره من إقامة ولديه مكانه توبيخاً له وإنكاراً بقوله « وأما فتياك وما ذكرت أنك تورثه لهما فذلك على ما يراه الإمام في وقته وحينه ، الأيام تعد يا موسى ، والأنفاس تحصى ، والرد إلى الله تعالى وإلى وليه أحق وأحرى ، ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينى ربي لأقرب من هذا رشداً » وحيث يقول « وأنت إن بقيت فسوف ترى مع من يرى كيف ينزل النازلون من الباطل فجاءاً ويدخل الداخلون في الحق أفواجاً . وقوله (ع) في سجل إلى بختيار بن الحسين الكوفي حيث يقول : بهذا وصفك الواصفون

(١) : ١ : فطرة (٢) : ١ : الدعوة (٣) : ٣ : ف : الأول (٤) : ١ : الدعاء

(٥) : ١ : المؤمنين (٦) : ١ : وبفرط (٧) : سقطت في ١ .

وعرفك المعروفون وله رأى أمير المؤمنين أن يقفك مع الذين هم بأماكنهم مستوقفون على ما يخدمون به أئمتهم إلى أن يأتيهم من لفائف الله ما تثلج له الصدور وتقر به العيون ، ويعلم العالمون وتيقن الموقنون أن وعد الله لنبيه^(١) في ذريته كان حقاً أن الله لا يخلف الميعاد . فلو لم يعرف أن ذلك كائن لما قال وفي قوله ذلك وبته الحكم على ما أوى إليه أكبر الدلالة على القوة الإلهية التي تظهر منه فيترك الباطل ويتبع الحق . ثم نقش خاتمه الذى هو : بنصر العظيم الولي ينتصر الإمام أبو على « فلو لم يعلم أنه ينتقم من أعداء الله لما نقش ذلك ولن يكون^(٢) الانتقام إلا بالقوة التأييدية والمساعد السماوية وفي فعله ذلك^(٣) الحكم^(٤) على ما تقدم من الشهادات بالصحة ثم اسمه (ع) الذى هو المنصور بألف لام التعريف وحكم الله في كتابه الكريم إشارة إليه وبشارة به وتعريفاً بقوله : « إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون » أى أنه هو الذى يغلب وينتقم ويهزم وينصر على أعداء الله تعالى وأعدائه وقوله ذلك (١٧) من أكبر الشهادات بما قلنا والمراد بالجمع في قوله المنصورون والغالبون واحد إذ من عادة العرب أن تجمع في كلامها فتقول هم والمراد واحد ونحن والمراد واحد وتقول إنا كنا فاعلين والفاعل واحد ففى موافقه هذه الشهادات وقيام هذه الدلالات ثبت الحكم بصحة ما قلنا وإن السعيد من كانت إمامته شعاره وحسن التقوى دثاره جمع الله شملنا معاشر المؤمنين بطاعته وجعلنا من أهل شفاعته إنه مان متطول .

(الفصل التاسع) لما كانت الدلائل على ما بيناه أن الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين (ع) هو الذى ينجز الله وعده به لمحمد (ص) وعلى يده يعود الأمر كلياً إلى بيت النبوة تأملنا بحثاً عن الوقت والمدة في ذلك ليكون ما يقوم من الشهادة بذلك مؤكداً لما سبق من الشهادات والبشارات به فوجدنا ما يحقق قولنا^(٥) قول ذى ينال النبي (ص) في المدة التي أوماً إليها من أيامه التي هي تاريخ الإسكندر بشارة حيث يقول « اسرى هام حكي ويكيح ليني ميم » أيلو وشلوش ماوب طوبى لأولئك الموحدين لأيام ألف وثلثمائة « وشلوشيم واخمشوا » أى طوبى للموحدين

(٣) سقطت في ١

(٢) ف : يقوم

(١) ف : لنبيهم

(٥) ا : ما قلنا

(٤) ف : الختم .

في زمن ألف وثلثمائة وخمس وثلاثين سنة من زمانى « وذلك يصدق ما ذكرناه من جهة كوننا من هذا التاريخ في ألف وثلثمائة وسبع وعشرين سنة التى بقى إلى الوقت المبشر به تسع سنين واستحكام الأمر ببقاء الإمام (ع) إلى وقت الشيخوخة وبياض اللحية التى تستغرق^(١) فيها هذه المدة فأبشروا أيها الإخوان ثم أبشروا فحقاً قال « وقوموا لله قانتين » وعلى ذلك الامتحان صابرين فوالله لينالن المؤمنون مناهم في دينهم ودنياهم جعلنا الله معاشر الإخوان من أتباع وليه (ص) على ماساء وسر وأعاننا على خير الأمور ثباتاً على طاعته وتسليماً لأمره إنه قدير .

(الفصل العاشر) ثم إن الذى يؤكد ما أوردناه ويشيد ما أثبتناه ما جعل الله « مع فطرته عليه فجعل وقت^(٢) كمال الإنسان بلوغه حد الأربعين سنة فعندها يتناهى قوى البشر فتشدد^(٣) ثم إن كان له جد صاعد كان بلوغه هذا الحد الموازى للعدد الشريف الذى هو الأربعة سبباً إلى اتساق أسباب التوفيق له في المطالب وتسهيل الأمر إليه في المصاعب يصحح ذلك قول الله « فلما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة آتيناه حكماً وعلماً » فتأملنا ووجدنا مولد أمير المؤمنين (ص) كان في ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة فكان الباقي لتمام المدة التى يستعلى أمره فيها من جهة الله تعالى كلياً مقارباً للمدة المبشر بها من كان فيها من جهة ذى نبال وتوافق ذلك من أكبر الدلالة على صحة ما قلناه والله ولى المؤمنين .

(الفصل الحادى عشر) ثم ما ينطق بصحة ما أوردناه المشهور من أفعال الأجرام السماوية في عالم الكون والفساد بحركاتها من أمر الله وتقديره وقراناتها التى يتفق لها سيرها^(٤) في المثلثات وما توجبه من انتقال الدول بانتقال قراناتها من مثلثة إلى مثلثة وكوننا في قران يوجب انتهاء (٧ ب) دول المخالفين بانتقال القران من ركن إلى ركن واستحكام الثقة بأن الحق هو الثابت الذى لا ينتهى وأن الباطل هو الذى يبطل وينتفى وموافقة المدة في كون القران الموجب لتغييرات الأمور وحدث الأحداث في العالم واستعلاء أرباب الحق للمدة المبشر بها من الأنبياء (ع) وهو تسع سنين من الشهادة التى تشيد للقضية السابقة لنا في ذلك والله ولى الكفاية .

(٣) ١ : فتشدد .

(٢) سقطت في ١

(١) ١ : تستغرب .

(٤) ف : تسيير

(الفصل الثاني عشر) وما يدل على ما قلناه من انتقال أمر الإسلام إلى الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين (س) بإنجاز الله له وعده فيكون الأمر كله إليه كما كان إلى النبي (ص) في أيامه أن النبي (ص) حين علم بما اطلع عليه من غيب الله أن الأمر في سياسة الأمة يخرج من بيته حيث أمر الله تعالى بأن يجعلها فيه من ذريته ويتداولها الخنازير والعفاريت ^(١) ضرب مثلاً ليعرفه أهل الإيمان والتابعين له في طاعة صاحب كل زمان فقال : « إن من أشراط الساعة أن تطلع الشمس من مغربها » وفي رواية أخرى أنه (ص) قال « تأتاكم الساعة بغتة فارتقبوا طلوع الشمس من مغربها فعندها تكون » فكان الناس يصعدون الجبال في الأسحار يرتقبون طلوع الشمس من مغربها ^(٢) فقال النبي (ص) تصحيح إيمانكم وتصديق نبيكم دالاً بقوله ذلك على أن الأمر زائل من ذريته بعده كزوال الضياء بغروب الشمس وأن الظلم يعم كما تعم الظلمة بغيبتها وأنه لن يرجع الأمر إلى ما كان عليه في حياة الرسول (ص) من كون الأمر في الإسلام واحداً من جهة الله إلا بعد مضي أربعمئة سنة من غيبته وذلك أن الشمس بكونها في العالم مضيئة مؤولة على أمر الله تعالى القائم في النبي (ص) وفي من جعله فيهم من الوصي والأئمة الطاهرين القائمين مقامه الذين أضاءوا عالم الشرع والدين ، وغيبتها خروج أمر الله من حيث جعله فيه من ذريته الذي يخرجهم عنهم أظلم عالم الدين والشرع وطلوعها من مغربها عود الأمر إلى ذريته ^(٣) فيضيء عالم الدين والشرع كما نضيء الشمس للعالم بعد أربعمئة سنة من غيبته (ع) (من العالم) ^(٤) وهو ما دل عليه حروف شمس بحساب الحمل وكوننا من هذه المدة في وقت يبقى إلى انتهائها ما يقارب المدة المبشر بها أهل هذا الزمان ويوافق قول الأنبياء والأدلة القائمة شهادة صادقة يشتد الأزر بها وترتاح النفس معها قرب الله الفرج بمنه .

(الفصل الثالث عشر) وما يؤيد ما ذكرناه معنى قول الله (عج) « ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين الله الأمر من قبل ومن بعد » وذلك أن هذه الآية جامعة لقضيتين وأخبار فلأحدى القضيتين أن تغلب

(٢) ف : المغرب .

(٤) سقطت في ف

(١) : العفاريت

(٢) : الذرية

الروم وثانيهما أن تغلب الروم بعد أن غلبت في بضع سنين والأخبار أن الأمر الذي لله وبأمره ما كان قبلاً وبعدها من دون ما بين قبل وبعده ، ولما كان على بن أبي طالب (ص) هو الممثل بعيسى بن مريم بقول النبي (ص) لولا أني أتخوف أن تقول الأمة (١٨) فيك ما قالت النصارى في عيسى (ع) لقلت فيك ما أخذوا الفضل من ماء طهورك والتراب من تحت قدمك واستشفوا به ، (كان الروم) المقيم على اتباع عيسى ومثلته مثلاً على الشيعة التابعة له في طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة القائم مقامه فحكم النبي (ص) عما اطلع عليه من غيب الله وأوصى إليه بأن تغلب شيعة على (ص) بغلبة الأضداد علياً فقال غلبت الروم ثم حكم بأن ترجع الشيعة فتغلب الأضداد بغلبة أئمة الحق من ذريته إياهم فقال « وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » أي في مدة سبع سنين ثم قال : « الله الأمر من قبل » أي أن الأمر الذي لله وبأمره في دور محمد (ص) (ما كان في أول الدور) ^(١) وهو ما كان في ^(٢) أيام الرسول (ص) من كون الأمر كله في طاعة الله من جهة الرسول من غير شركة إبليس معه ثم قال « ومن بعد » أي ما يكون بعد زوال أمر الأبالسة من الأضداد في الدور وهو ما يكون عند انتقال الأمر بالكلية في الإسلام إلى ذرية الطاهرة فيكون الأمر لله من جهة وليه من غير شركة إبليس معه دالاً بذلك على أن ما بين القبل والبعده فالأمر لا من جهة الله ولا بأمره بل من جهة الظالمين والفاصلين فتأملنا هذه الآية فحسباً عن المدة في غلبة الأضداد إذ لا يجوز أن يعدم بيانها مع قوله (تع) « ما فرطنا في الكتاب من شيء » فوجدنا « الم » التي هي من حروف المعجم شاهدة بذلك وناطقة به وذلك أنها تدل بكونها ثلاثة أحرف في هذا الموضع وهو « الم » أن الغالبين لعلي بن أبي طالب (ص) بالباطل من الظالمين والفاصلين إياه على حقه ثلاثة نفر وهم :

(م ه ⊕ ه ٣ × ٣٦ ، ٢٣٥٦ ع) ^(٣)

وبالانبعاث الأول الواقع من هذه الحروف وهو « ل ف ا م ي م » على الغالبين والظالمين بعد الثلاثة من بني أمية وهم أكثر نفراً من الثلاثة ، وبالانبعاث

(١) في أول ما كان في أول الدور

(٢) ١ : من .

(٣) هكذا في نسخة ١ بالروز أما في نسخة ف فهي (أبو بكر وعمر وعثمان) .

الثاني الواقع من الانبعاث الأول وهو ام ال ف ي م ا ي م على الظالمين بعدهم من آل العباس وهم أكثر ممن تقدمهم وبموافقة عدد الحروف أجمع أصلاً وانبعاثاً إعداد أبواب النار وهم تسعة عشر بقوله (تع) « لواحة للبشر عليها تسعة عشر » إنهم والمستكن في حروفهم من أهل النار وبإعداد هذه الحروف على حساب الجمل بعد إسقاط ما هو مكرر في كل انبعاث وهي ال م ل ف ا ، م ي ا م ل ف ي على أن مدة الغضب والظلم وبقاء الأمر في الغاصبين والخارجين ثلثمائة وثلاثة وتسعون سنة فصار موافقة الباقي وهو سبع سنين لتتم الأربعمائة سنة التي بُشِّرَ المؤمنون بطلوع الشمس من مغربها على تتمتها على ما ذكر من قبل المدة التي حكم بها النبي (ص) من الله (تع) أنهم يغلبون فيها وهي سبع سنين شهادة قائمة على صحة ما ذكرناه ودلالة باهرة على أن ابتداء الفتوح لولي الله من سنة سبع وأربعمائة إلى تمام المدة الموعود بها قرب الله فرج المؤمنين في مشارق الأرض (٨ ب) ومغاربها بإنجاز وعده لوليه حتى لا يعبد إلا هو وحده بطاعته إنه قدير .

(الفصل الرابع عشر) ومن العجائب وباهر الدلالة أن أكبر عدو لولي الله هو المقيم ببغداد واسمه أحمد وصاحب القيل بخراسان واسمه محمود أبادهما الله (تع) واسم الإمام (ع) إذا أخذ عدد حروفه بالحساب القديم الذي كان يعول عليه في الأعصار الحالية في معرفة الغالب والمغلوب وجمع أعدادها وأسقط منها تسعة تسعة على ما ذكرناه في الرسالة المعروفة بالشعري في الخواص كان الباقي منها دون التسعة عدداً دالاً على أنه يغلب هذين العددين أبادهما الله وذلك أن باقى اسم ولي الله (ع) بعد إسقاط الاتساع منه ثلاثة وباقى كل اسم من محمود وأحمد ثمانية والثلاثة أبداً تغلب الثمانية فقد قامت الدلالة من جهة هذا الحساب أن الله يسهل ^(١) له الصعاب ويذلله الرقاب ويبسط ملكه ويمهده ويعلى رايته في الآفاق ويؤيده قرب الله ذلك ويسره وأنساً في أجلانا معاشر المؤمنين حتى نعاين قدرة الله (تع) وما يفتح له لوليه (ع) من النصر والظفر إنه قدير . وبعد أن انتجرت الفصول فنقول إن الأئمة (ع) من جهة أشخاصهم بشر مثلنا من أولاد الطبيعة ومن جهة أنفسهم مختصون بالدرجة العالية الرفيعة وإمامتهم إذا ثبتت وقامت الدلالة عليها فلا تكون أفعالهم ولا أقوالهم إذا لم يعرف وجه الحكمة فيها طعناً في إمامتهم

إذا لم يكن وقوع المعرفة بثبوتها لهم من جهة الأفعال فيقع من جهتها الإنكار وسواء عرفت الحكمة في أفعالهم أم لم تعرف إمامتهم ثابتة لا تنحل معاقدها ولا تنبت قلائدها كنبوة النبي (ص) التي لما كانت ثابتة لم تكن مخالفتها في حكمه بمؤاخذه العم البريء الساحة بالقاتل خطأ لأحكام كتاب الله (تع) بقوله « ولا تزر وازرة وزر أخرى » عرف الحكمة أم لم تعرف طعناً في نبوته إذ نبوته ثبتت من جهة أخرى لا من جهة الأفعال والأحكام وبالاختبار بالأفعال يهلك الناس في الأئمة فيرونهم بأشخاصهم ولا يبصرون مراتبهم فيختلف عليهم الاعتقاد بأدنى شبهة تعرض فيقعون في الشك والارتداد نعوذ بالله فيؤديهم ذلك إلى النار والبوار وسوء الدار ولذلك قال (تع) « وتراهم ينظرون إليك (يا محمد) وهم لا يبصرون (عظيم مرتبتك) » وإذا كان ذلك كذلك فبالحرى أن يتأمل العاقل لنفسه ولا يعتبر بما ينطوى عليه من أفعال الإمام (ع) وإن كانت في ظاهرها لا تتعلق بحكمة إذ ذلك لا ينقض إمامته وفعله لا يخلو من حكمة يقصدها به وإن كنا لا نعرفها في الوقت ولا يدهشه ما يظهر له من اضطراب الأمور ظاهراً وباطناً فالأنبياء والأوصياء والأئمة (ص) قد تضطرب عليهم أمورهم ولن يكون ذلك طعناً في مراتبهم ولولا أن أسرار الأئمة (ع) منهي عن إفشائها لأتيت بالعلة في العارض في زماننا وفي الحملة قلنا اعتبار بالوصي (ع) كيف جعل وراء الباب (١٩) سترأ على مرتبته بالأئمة (ع) أيضاً كيف كانت أحوالهم في الفترات وهذا أعني العارض في زماننا من الفترة^(١) في جنب ما جرى على الأئمة (ع) حين بحمد الله ومنه وقد تحصل المناحس في بعض أمكنتها مسامحة للمواضع الشريفة من الولادة والعقود في الولاية فيحدث مثل ذلك فتزول بانتقالها وتعود الحال إلى أفضلها وأنا أثبت الحكم جملة أنه لن ينال خيراً ولا يرتفع في مثل هذه الفترات إلا من لا يستحق من الأذئاب ومن إذا تفحص في أمره كان خسيئاً في أصله ودينه أو معاً فلا يصعب عليكم أيها المؤمنون ما يجري فإن الرب كريم والمولى رءوف رحيم والزمان يأتي بتيسير كما أتى بتعسير ثم أقول إن الإمامة رياسة نفسانية ودرجة قدسانية ينالها الأئمة (ع) بتأييد الله (تع) وواسطة مثلهم بسطع نورها في الأنفس المتعلقة بها ديانة سطوع شعاع الشمس في الأجسام الشفافة فتضيئوها بكونها مضيئة بالمواد

التي تنصب إليها من لطائف الخطرات البعيدة من الزلات وبكونها من اليقين بالله (عج) بحيث لا تغلبها عوارض الطبيعيات وإن اعترتها بكونها في عالمها فإنها تستدرك الزلة ومن ذلك تثبت لها العصمة ولذلك قال تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان » به يحكم الله آياته وهي إذا تأملنا^(١) من طرف كانت الأنفس^(٢) كالجنس من النوع بكونها مقومة لذات الأنفس ومثبتة لها وحافضة لها بما ينصب إليها من جهتها من العلوم والمعارف الدينية التي بها تتجوهر^(٣) الأنفس وتؤديها إلى دار الثواب والقرار ومن طرف كانت لها كالنوع يكون صورتها في وجوب طاعتها من جهة الله تعالى محمولة في ذواتها وبها شرفها وقد ذكرنا في رسالتنا الوصية في المعاد كيفية الأمر في ذلك على شرح فطوبى لذات كانت صورتها^(٤) اليقين بوحدانية الله وصدق مقامات أولياء الله فهي الناجية وتكون في حظيرة القدس بمشابهتها إياها هي الراجية إذا كان ذلك مؤديها إياها إلى مجاورة رب العالمين ومساكنة الجنان والحدود العينية ، ومثلها من الأشياء الجسمانية كالدرهم الجيدة العيار^(٥) المضروبة بالسكة المنقوشة باسم الله وباسم رسول الله واسم أوليائه فكان موضوعها ذات النفس ونقشه صورة التوحيد وطاعة أرباب التأيد فلا يشك في كونه مقبولا عند أصحابه مقرباً من أسبابه عزيزاً على أربابه وتعسا لنفس تعتقد غير توحيد الله والإيمان برسوله والأئمة من إله واحداً بعد واحد وتقصر في الأعمال المفروضة التي هي وسم الطاعة في النفس^(٦) فهي الهاوية في نار جهنم والغاوية على نفسها بالليل والنوم ومثلها من الأشياء الجسمانية كالدرهم الزيف التي ترد أو كالهرج الذي في جملة الجيد لا يعد بكونها مغشوشة (٩ ب) بغير ما أمر الله به فلا تلائم الجواهر الشريفة ولا تجاور العناصر النفيسة فأى حسرة^(٧) أعظم وأى ندامة أكبر من أنفس يجيئها الموت وهي خالية من الخيرات التي تقرب درجاتها فتحصل في دار مالكتها رب العالمين وسكانها أصحاب اليمين ورؤساؤها أنبياء الله (تع) ذكر وقوادها أولياء الله (ع) وخيراتها تفيض وماء بركاتها لا يفيض فلا يكون لها إله تقبل بها الخيرات ولا ترد فتستأنف العمل من الصالحات هيئات كلاً لا سبيل إلى اقتناء الفضائل

(١) : ١ : وإذا تأملنا (٢) : ١ : الأنفس . (٣) : ١ : التي تجوهر . (٤) : ١ : صورته .

(٥) : ١ : المعيار . (٦) : سقطت في . (٧) : ١ : خسر .

للقدسانية ولا إلى نيل هاتيك الدرجات النفسانية إلا بآلات تنهياً لها مما يليق بها بالتزود من دار الدنيا ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتمسك بما أمر الله به من الطاعة وتهذيب النفس بالأخلاق الرضية وتحسينها بالأعمال المرضية وتحليتها كما تحلى العروس بأصناف الحلى وتزيينها كما يزين الميت عند التجهيز فيوشاك حيثئذ أن أن يكون له مأب كريم ويتعرف به بركة ونعيم حشرنا الله مع موالينا الطاهرين أهل الخيرات الإلهية وجمع بيننا وبينهم في دار القرار ونور عقولنا بطاعتهم ورزقنا خير هذه الأيام إنه قدير وبعد فإننا في إنجاز الوعد في أول الرسالة نختمها بالحمد لله مالك الأرواح ومتوفيها وبالصلاة على معدن السلامة ومحل النور والكرامة محمد وآله الأبرار الطاهرين وبالسلام على هادينا وإمامنا ^(١) المنصور أبي على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وعلى أبنائه ^(٢) الطاهرين والأئمة من عقبه المنتظرين.

تحت رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين (ع) وصلواته وبركاته وتحياته على رسوله وخيرة من خلقه محمد وآله الأئمة الطاهرين وهي الرسالة التي كتبها على بن حسين بن أحمد الأصبهاني المؤذن بالجامع الأزهر قبس من الداعي أحمد بن عبد الله بن محمد الكرمانى مؤلفها وكتبت من نسخته وقرأت عليه سبحانه الله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم حسبنا الله ونعم الوكيل .

الفصل الثاني

ظهور الدعوة الجديدة

في رسالة مباسم البشارات رأينا الكرمانى يشير إلى اضطراب الأحوال في مصر مقر الإمام الحاكم حينما وفد إليها سنة ٤٠٨ هـ ، وكان يشير بصفة خاصة إلى حالة الدعوة الفاطمية ، فقد صرح الكرمانى بأن عهود الدعوة التى كانت قبل ذلك قد درست ، وأن مجالس الحكمة التأويلية أبطلت ، وتقلبت الأحوال بالناس فالعالي قد اتضع والسافل قد ارتفع ، والذين آمنوا بالدعوة الفاطمية اضطربت أحوالهم وكل واحد يرى صاحبه بالإلحاد ، وبعضهم غالى في رأيه والبعض الآخر خرج عن عقيدته إلى آخر ما جاء في رسالته التى نشرناها في هذا الكتاب ، فالصورة التى صورها الكرمانى لهذا الاضطراب الذى ظهر في المجتمع كان بسبب ظهور دعوة جديدة تقول بأن الحاكم بأمر الله ما هو إلا ناسوت للإله ، ولا شك أن الدعاة الذين نادوا بهذه الدعوة الجديدة ظلوا يعملون لها مدة طويلة في الخفاء ، ويعدون عدتهم للظهور بها في الوقت الملائم ، ومن حسن الحظ أننا عثرنا على نص طريف في الكتب المقدسة للدروز يفهم منه أن الحاكم بأمر الله أظهر لاهوته لأول مرة سنة ٤٠٠ هـ . وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن سلوك الحاكم إنما كان بتأثير فكرة الألوهية ، وأن دعاة هذا المذهب كانوا يجانبه قبل هذا التاريخ ، والمؤرخون يذكرون ثلاثة من الدعاة الكبار الذين أسسوا هذا المذهب وهم الحسن الفرغانى المعروف بالأخرم وحمزة بن على بن أحمد ومحمد بن إسماعيل الدرزى ، وهؤلاء جميعاً ، لا يذكر التاريخ عنهم شيئاً قبل ظهور الدعوة إلى المذهب الجديد ، فأصبحنا لا نعرف شيئاً عن حركاتهم ووسائلهم التى اتخذوها قبل إعلان هذه الدعوة سنة ٤٠٨ هـ ، ولكننا نرجح أنهم كانوا من حاشية الحاكم الذين لم يفارقوه مدة الوصاية عليه ، وخاصة حمزة بن على الذى استأثر بكل شئ وبالتمجيد كله ، ويظهر أن الحاكم كان متأثراً به تأثراً تاماً ، وربما كان حمزة هو الذى أوحى إلى الحاكم بكل ما قام به من أعمال ومن ادعاء الألوهية ، ولا أستطيع أن

أفهم قول القائلين إن حمزة كان داعياً من دعاة الفاطميين فقط ، فالأرجح عندي أنه كان يؤدي عملاً في القصر وكان على اتصال دائم بالحاكم ، ومما لا شك فيه أنه لم يكن من الكتاب لأن أسلوبه في رسائله وكتبه ليس به هذا الإشراق وتلك الديباجة وهذه الرصانة التي عرفت عن كتاب الفاطميين ودعاتهم ، فهو في كتاباته أقل جودة وفصاحة من الكتاب بل أخشى أن أقول إنه لم يكن عربياً البيان بالرغم من كثرة رسائله التي بين أيدينا ، ويغلب على ظني أن حمزة كان أحد الخدم الخصوصيين للحاكم وكان خادماً ذكياً لبقاً ذا حيلة ودهاء وخيال خصب ، وكان بحكم عمله في القصر يستمع إلى مجالس الحكمة التأويلية فوعيا وحفظ منها كثيراً ، وربما قرأ كتب الدعوة التي كانت بالقصر فأفادته في تلوين عقليته وتوجيه فكره إلى ما يرضى طموحه ويحقق آماله ، وظل هذه السنوات يهيئ نفسه لذلك وفي سنة ٤٠٨ هـ ، لقبه الحاكم بالإمام وأطلقه يذيع المذهب الجديد ولذلك جعلت هذه السنة مبدأ تقويم حمزة ، وبالتالي مبدأ تقويم الدروز .

والمؤرخون يذكرون خطأ أن محمد بن إسماعيل الدرزي المعروف بنوشتكين وفد على مصر سنة ٤٠٨ هـ وخدم الحاكم فأحسن إليه وأنعم عليه وقربه حتى صار القوادى والدعاة وكبار رجال الدولة يتقربون إليه ويلجأون إليه لقضاء حوائجهم ، وأنه في هذه السنة أظهر دعوة التآليه ، ولكنى أرى غير ذلك كله ، فالدرزي كان بمصر قبل هذا التاريخ الذي حدده المؤرخون ، واتصل بحمزة بن علي مدة طويلة قبل إظهار الدعوة وعملاً معاً في رسم خططها ، ويصرح حمزة في رسالة الغاية والنصيحة بأن الدرزي كان أحد الذين استجابوا له ولكنه تغطرس على الكشف بلا علم ولا يقين ، ويقول حمزة ، في رسالة الرضى والتسليم : « واعلموا بأن الدرزي والبرذعى نطقاً بغير معرفة ولا علم وأعليا البناء بغير أساس ، وقد رفعت اسمه إلى الحضرة اللاهوتية في جملة أسماء كثيرة وقد سألتى مراراً كثيرة أن أدفع إليه شيئاً من كتب التوحيد مما ألفته فلم أفعل ذلك » وكلام حمزة في رسالة البلاغ وفي رسالة الصبحة الكائنة تدل كلها على أن الخلاف بين حمزة والدرزي بسبب تسرع الدرزي في الكشف عن المذهب الجديد ، والاتفاق واضح بين المؤرخين وكتابات حمزة في سنة ظهور مذهب حمزة أى سنة ٤٠٨ هـ ، فالخلاف بين

الداعيين بدأ قبل هذه السنة ، ويذكر حمزة أسماء الذين كانوا مع الدرزي أمثال أبي منصور البرذعي وأبي جعفر الحبال والعجمي والأحول وخطلخ ماجان ومعاوند وغيرهم من العكاويين ، فنفهم من هذا كله أن الدرزي وأصحابه كان يتبعون حمزة ، ولكن الدرزي أراد أن يستأثر بالألقاب وبالرياسة أو الإمامة فاسرع بالكشف عن المذهب ولم يستمع إلى نصائح حمزة بالتريث وعدم الخروج على طاعته فقد جاء في رسالة الصبيحة الكاثنة « وما منكم أحد إلا وقد نصحته بحسب الهداية إلى دعوته فنكم من استجاب ونكت مثل علي بن أحمد الحبال الذي كان مأذوناً لي وعلى يده استجاب نشكين الدرزي » ويقول مرة أخرى في نفس الرسالة عن مطامع الدرزي في الإمامة « فكتبت إليكم هذه الأحرف لتقفوا عليها وتسكنوا إلى دقائق معانيها وتحققوا من نور الإمامة وهدايتها أنها لا تنقسم في شخصين في وقت واحد » ، وفي رسالة الرضا والتسليم يقول حمزة : « وأما البرذعي فأنا أرسلت إليه ودعوته إلى توحيد مولانا جل ذكره وعبادته فأقسم بمولانا جل ذكره أنه لا يدخل في هذا المذهب إلا بتوقيع من مولانا جل ذكره فلما أرسل إليه الدرزي رسوله ومعه ثلاثة دنائير وأوعده بالمركوب والخلع فمضى إلى عنده وفتح له أبواب البلايا والكفر ، وأما أصحابه كلهم فمكتوبون عندي عليهم وثائق بالشهود العادلة لا يرجعوا (هكذا في الأصل) عما سمعوه مني أبداً . »

فن هذه الأقوال يتضح أن الدرزي طلب الإمامة ، وأنه أغرى من اتبعه بالأموال والخلع والمركوب ، ومن الطريف أن حمزة يتهم الدرزي في رسالة الغاية والنصيحة بأن الدرزي كان يضرب الدنانير والدراهم ويزغلها ، فربما كان الدرزي يتولى دار الضرب للحاكم ومن ثم كانت له هذه المكانة في المجتمع مما جعل المؤرخين يذكرون أنه كان مقصد القواد والدعاة وكبار رجال الدولة ، فحمزة يتهم الدرزي بأنه كان يزغل الدنانير والدراهم فظن أنه يستطيع أن يدلس في أمر الدين بما جبل عليه واعتاده في أمر النقود ، فأتى الدرزي بآراء دينية خالفة فيها حمزة من ذلك أنه سمي نفسه « سيف الإيمان » و « سيد المهادين » وقال إنه خير من حمزة وأعلى منه ، وأن الدرزي كان يلعن مخالفي المذهب بينما يقول حمزة « اللعنة لا تزيد في الدين ولا تنقص منه » ولذلك منع أتباعه من سب مخالفيه جرياً على السجل الذي أصدره

الحاكم بمنع سب السلف الصالح ، كما أن حمزة رأى أن يخاطب الناس جميعاً بالتي هي أحسن « فإذا فعلت هذا مالت قلوب العالم إلينا وارتفعت ألسنتهم عنا » وهذه كلها ليست خلافات جوهرية في صميم العقيدة ، ولكن الخلاف الجوهرى كما فهمته من كتابات حمزة إنما كان بسبب رياسة الدعوة الجديدة ، وتسرع الدرزي في الكشف عن الدعوة الجديدة ولذلك أذهب إلى أن ظهور دعوة الدرزي كانت سنة ٤٠٧ هـ .

أما الداعى الثالث وهو الحسن بن حميدة الفرغانى المعروف بالأخرم أو الأجدع فلا نعرف عنه شيئاً إذ لم يذكر المؤرخون سوى اسمه وأنه قتل بعد أيام قليلة من ظهور الدعوة الجديدة إذ كان يسير مع أصحابه بالقاهرة سنة ٤٠٨ هـ . فوثب عليه رجل من أهل السنة وقتله وقتل معه ثلاثة رجال من أتباعه فغضب الحاكم وأمر بإعدام قاتله ودفن الأخرم على نفقة القصر في حفل رسمى ، كما أن جمهور أهل السنة احتفلوا بمآتم القاتل ودفنوه مكرماً ، وكان الناس يزورون قبره للتبرك به ، مما ضاعف في غضب أصحاب الأخرم ، فنبشوا قبره وأخفوا جثته ، هذا كل ما ذكره المؤرخون عن ثالث ثلاثة دعاة أسسوا الدعوة الجديدة ، وقد نشرنا من قبل « الرسالة الواعظة » لأحمد حميد الدين الكرمانى ، وهى رسالة موجهة إلى الأخرم ردّاً على رقعة بعث بها الأخرم إليه ، ومن هذه الرسالة يتضح لنا أن الأخرم هو الذى كان يقود حركة الدعاية للمذهب الجديد وأنه هو الذى كان يبعث بالرقاع إلى الناس يدعوهم فيها إلى العقيدة الجديدة دون أن يشير إلى حمزة وكان يطلب من العلماء وكبار الدعاة أجوبة على رقايعه فاضطر الكرمانى إلى أن يجيبه فكتب « الرسالة الواعظة » فى الرد عليه ويشير فيها إلى أن الأخرم هو رئيس هذه الدعوة وفى هذه الرسالة يثبت الكرمانى فى المقدمة بأن الحاكم إمام من أئمة المسلمين الذين يعملون على نشر الإسلام وحمايته ويعملون بفرائضه وأحكامه ثم يأخذ الكرمانى فى الرد على أسئلة الأخرم ، فأول ما نراه من ذلك أن الكرمانى وجد رقعة الأخرم خالية من البسملة ومن الصلاة على النبى وعلى الأئمة من ذريته فيقول الكرمانى « ولا تخلو أن تكون فى تظاهرك بولاء أمير المؤمنين عليه السلام إما متبعاً له أو غير متبع ، فإن كنت متبعاً فبمخالفتك إياه فيما أمرك به فى السجلات المكرومة من السلام عليه

وعلى آبائه الطاهرين في جميع المكاتبات وقعودك عن الاقتداء فيما يفعله من تصدير سجلاته وجميع مكاتباته وخطبه بيسم الله الرحمن الرحيم والاستفتاح به والصلاة على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد والتبرك بها قد كفرت .

ثم يقول الأخرم في رقعته « من عرف منكم إمام زمانه حياً فهو أفضل ممن مضى من الأمم من نبي أو وصي أو إمام » ، « وأن من عبد الله من جميع المخلوقين لعبادته لشخص لا روح فيه » مستدلاً بقوله « إن الله اسم والألف منه شبيه بالطول واللام منه شبيه بالعرض والهاء منه شبيه بالعمق فيكون طويلاً عريضاً عميقاً وأن الله اسم وهذه صفته والمعنى هو الشخص » ويسأل الأخرم عن معنى الآية القرآنية « عينا فيها تسمى سلسبيلا » (سورة الإنسان ٧٦-١٨) ثم يقول لأهل الدعوة الفاطمية « قد قامت قيامتكم وانقضى دور ستركم » ثم يعود إلى سؤال الكرمانى عن الإسلام وشرائطه ؟ وعن الذى يتقرب به إلى المعبود ؟ وما الذى استعبد الله به الخلق ؟ وهل الشريعة محدثة أم قديمة مع الدهر ؟ وهل الشريعة هي الدين ولا دين غيرها أم هي طريق الدين ؟ وما النفس ؟ وما العقل ؟ وما غاية الإبداع الذى فوق الروحانيين والجسمانيين ؟ ثم ينتهى به القول إلى أن الشريعة والتزويل والتأويل خرافات وقشور وحشو ولا تتعلق بها نجاة وأن الناس لا يوجهون وجوعهم إلى القبلة لأنها حائط ، وأن المعبود هو الحاكم .

هذه هي الآراء التي بعث بها الأخرم في رقعته إلى الكرمانى ، وأجاب عنها الكرمانى في رسالته « الواعظة » ، ويتضح لنا أن آراء الأخرم هي نفس الآراء التي دعا إليها حمزة والتي نجدها في الكتب المقدسة للدروز ، وأن الخلاف كان شديداً بين أصحاب دعوة الفاطميين وبين أصحاب الدعوة الجديدة ، فالكرمانى قال بتكفير كل من دعا إلى المذهب الجديد وكذلك قال أصحاب هذا المذهب في مخالفتهم وقد سجل المؤرخ سعيد بن البطريق ذلك بقوله « وصار أصحاب الهادى إذا لقوا أصحاب ختكين داعى الدعاة لعن بعضهم بعضاً ويكفر كل فريق منهما بالآخر .

فالأخرم إذن كان من مؤسسى هذه الدعوة ولا ندرى تماماً مرتبته بين الحدود لأنه قتل قبل أن يتبلور مركز الحدود ومراتبهم ، ولا ندرى ماذا يكون مصيره مع

حمزة إذا قدر له أن يعيش ، لأن طموح حمزة كان لاحد له كما هو واضح في كتاباته عن نفسه وعن الأدوار التي عاش فيها . ومهما يكن من شيء فإن الدعوة إلى المذهب الجديد ظلوا في سترهم مدة طويلة يعملون في الخفاء ويدعون الناس سرا لمبادئهم وتعاليمهم واستجاب لهم عدد كبير حتى قام الدرزي وأعلن الدعوة سنة ٤٠٧ هـ وانقسم الدعوة والمؤمنون بالمذهب الجديد إلى فريقين فريق الدرزي وفريق حمزة ، وقام الدرزي سنة ٤٠٨ هـ . ومعه نحو خمسمائة من أتباعه بالحج إلى قصر الحاكم فهاجمهم جموع الناس والجند فقتل من أتباع الدرزي نحو أربعين رجلا وهرب الباقون ، وفي اليوم التالي هاجم الناس مقر حمزة ومخبأه وكان معه اثنا عشر رجلا وكادوا يقتلون ولم يصدر أمر الحاكم بوقف القتال وبذلك فقط أنقذ حمزة ومن كان معه فاختبأ حمزة بعد ذلك في خندق حتى خرج منه بعد أن اطمأن على نفسه واختلفت الأقوال وتضاربت عن الدرزي فالأنطاكي وابن العميد يذهبان إلى أنه قتل في الثورة سنة ٤٠٨ هـ . أما ابن البطريق فقال إن بعض غلمان الأتراك عمل على قتل الدرزي فوثب إليه وهو في مواكب الحاكم فقتله ونهب داره وافتتنت القاهرة وأغلقت أبوابها ولبثت الفتنة ثلاثة أيام وقتل فيها جماعة من الدرزية ، ولكن يظهر من رسائل حمزة أن أصحاب الدرزي قد اعتقلوا وأودعوا السجن ، وقيل إن الدرزي هرب إلى وادي التيم وظل يدعو أهل الجبال بمذهبه ولذلك عرف أهالي هذه المنطقة الذين اعتنقوا دعوته « بالدروز » ، ويقال إن الحاكم هو الذي نصح الدرزي بالرحيل إلى هذه المنطقة في الشام وأعانه بالمال ، وقيل إنه قتل سنة ٤١٠ هـ كل هذه الأقوال لا نستطيع أن نعرف منها الحقيقة لاضطرابها فيما بينها ثم لأن حركة التأليه أصبحت إلى حمزة بعد أن خرج من ميدانها الأخرم والدرزي وصار أمر الدعوة كله إلى حمزة ، فلقب نفسه « هادي المستجيبين » و « إمام الزمان » و « قائم الزمان » و « المنتقم من المشركين بسيف مولانا » إلى غير ذلك من الألقاب ، وأخذ يكتب الرسائل التي أودعها دعوته ، ويبعث بالرقاع إلى المخالفين ويولي أعوانه وظائف الدعوة وفي شهر ربيع الأول من سنة ٤٠٩ هـ . بعث إلى القاضي أحمد بن محمد بن العوام رقعة هذا نصها :

« توكلت على أمير المؤمنين جل ذكره ، وبه أستعين في جميع الأمور ،

معل علة العلل ، صفات العلة بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد أمير المؤمنين ومملوكه حمزة بن علي بن أحمد هادي المستجيبين ، المنتقم من المشركين بسيف أمير المؤمنين وشدة سلطانه ولا معبود سواه إلى أحمد بن محمد بن العوام الملقب بقاضي القضاة ، أما بعد فقد تقدمت لنا إليك رسالة نسألك عن معرفتك بنفسك فقصرت عن الإجابة قلة علم منك بالحق وإهجاناً به ، وكيف يجوز لك أن تدعى هذا الاسم الجليل وهو قاضي القضاة وليس لك علم بحقائق القضايا والأحكام ، فقد صح بأنك مدع لما أنت فيه فيجب عليك أن تعلم نفسك وتدر بها ، فإن كنت قد جهلتها فأنت فرعون الزمان ، وفعلك لاحق بعثمان بن عفان ، فيجب عليك أن تقلع عما أنت عليه وتتبع سير أصحابك المتقدمين أبي بكر وعمر ، وتزيل تليمة البياض عن رأسك والعمامة والطيلسان ، وتلبس دنية طويلة سوداء بشقائق صفر طوال مدلاة على صدرك وتلبس دراعة بلاجيب بل تكون مشقوقة الصدر وتكون مرقعة بالأحمر والأصفر والأديم الأسود الطائفي ، وتكون قصيرة عليك لتلحق في الشكل بعمر بن الخطاب ، ويكون لك درة على فخذك لتقيم بها الحدود على من تجب عليه وأنت جالس في الجامع ، ويكون لك في كل سوق صاحب يتزى بزبك ويبيده درة يقيم بها في سوقه الحدود على من وجبت عليه مثل الزاني والسارق والقاذف وشارب الخمر ممن هو من أهل ملتك ، وتكون تتولى الخطبة بنفسك وتطلع على المنبر بلا سيف تتقلد به ، ويكون ممرك ومجيئك من دارك إلى الجامع وأنت ماش حافياً لتكون في ذلك لاحقاً بأصحابك المتقدمين أبي بكر وعمر وإياك ثم إياك أن تنظر لموحد في حكم لا أنت ولا عادلتك في شهادة نكاح ولا طلاق ولا وثيقة ولا عتق ولا وصية ومن جلس بين يديك على حكم فتسأل عنه أن يكون موحداً فترسله إلى مع رجالتك لأحكم أنا عليه بحكم الشريعة الروحانية التي أطلقها أمير المؤمنين سلامه عاينا ، فانظر لنفسك فقد أعذرتك مرة بعد أخرى وأندرتك «

فهذه الرسالة تثبت أن حمزة أصبح في مكانة استطاع منها أن يخاطب قاضي القضاة بمثل هذا الخطاب ، ولو لم يكن وراء حمزة من يحميه ويدفع عنه الأذى ما كان يجرؤ على كتابة مثل هذا الخطاب ، ويصرح حمزة بذلك في رسالته البلاغ فهو يقول « وقد أرسلت إلى القاضي عشرين رجلاً ومعهم رسالة رفعت نسختها

إلى الحضرة اللاهوتية فأبى القاضي واستكبر وكان من الكافرين واجتمعت على غلمانى ورسلى الموحدين لمولانا جل ذكره زهاء مائتين من العسكرية والرعية وما منهم رجل إلا ومعه شيء من السلاح فلم يقتل من أصحابى إلا ثلاثة نفر وسبعة عشر رجلاً من الموحدين فى وسط مائتين من الكافرين فام يكن لهم إلبهم سبيل حتى رجعوا إلى عندى سالمين .

وقد اتفق كلام المؤرخين وقول حمزة فى ذلك ، ويضيف المؤرخون أن قاضى القضاة أبى أن يجيبهم إلا بعد أن يطالع الحاكم نفسه فى ذلك ، فكان موقفه موقف بعض أصحاب الدرزى الذين اعتقلهم حمزة إذ صرح حمزة فى رسائله أن معانداً (أحد المعتقلين) أبى أن يستجيب إلا بعد أن يخرج سجل الحاكم بذلك . ويتضح من رسائل حمزة أن الناقمين على آرائه هاجموا مقر حمزة فى مسجد تبر خارج القاهرة بالقرب من المطرية الحالية ، وكان حمزة قد اتخذ ملجأ فى داخل المسجد وحصنه بحيث لا يفطن أحد إلى مقره ، فلما جاء خصومه أحرقوا باب المسجد ثم وجدوا داخل المسجد باباً من الحجر لا تعمل فيه النار ويصعب نقب جدره ، ويقول حمزة « إن الباب الحجر القوى هو خوخة ضيقة لا يستطيع أحد أن يدخلها إلا إن كان من أصحابها أو أربابها » فلم يستطع أحد أن يصل إليه أو إلى أتباعه المتحصنين داخل المسجد ، ويظهر أن الحاكم خاف على حمزة فكثيراً ما كان يسكنه معه فى قصر الخلافة الفاطمية كلما اشتد طلب الناس لحمزة حتى إذا هدأت الفتنة بعض الشيء عاد حمزة إلى حصنه فى مسجد تبر وقابل مؤيديه وأتباعه الذين كثروا حتى بلغ عددهم مائة ألف ، ونفهم من الكتب المقدسة أن حمزة بدأ فى تعيين الدعاة فى الأقاليم والبحزر مقتدياً فى ذلك بنظام الدعوة الفاطمية ، وأخذ يلقب نفسه والدعاة الذين قبلوا معاونته ويخلع عليهم وعلى نفسه النعوت والصفات وألقاب التكريم — وستحدث عن هؤلاء الحدود فى باب العقائد — كما رسم للحدود كيف يقابلون الحاكم بأمر الله وكيف يخاطبونه مما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الحاكم كان يشجع هؤلاء الدعاة وأنه كان يطمح إلى أن يعترف الناس بالوحيته ، وذهب حمزة فى إرسال كتب إلى الملوك والأمراء وكبار رجال العالم يدعوهم إلى الدخول فى هذا المذهب الجديد فراه يرسل إلى ولى العهد عبد الرحيم بن إلياس ونرى بهاء الدين الملقب

المقتنى يرسل إلى راجا بهربال بالهند وإلى إمبراطور بيزنطة وغيرهم ، وهنا يجب أن نذكر أن بهاء الدين كان له أثر قوى في تاريخ الدعوة الدرزية بل في العقيدة نفسها ، وسنذكر ذلك فيما بعد ، أما حمزة فقد رأيناه يتخذ مسجد تبر مركزاً له وكان يتصل بالحاكم عن طريق الرسل والمكاتبات فأكثر رسائله يقول إنه رفعها إلى الحضرة اللاهوتية وظل مختفياً حتى سنة ٤١٠ هـ ، ففي رسالة النساء الكبرى يشير إلى أن الحاكم أظهر مرتبة حمزة ، ومن يدري لعل حمزة ظهر في هذه السنة عقب قتل الدرزي وأتباعه ، ولا نعلم شيئاً عن حمزة بعد اختفاء الحاكم في شوال سنة ٤١١ هـ إلا هذه الرسالة التي بعثها إلى أتباعه بالشام على يد الداعي أبي يعلى يحدثهم فيها عن غيبة الحاكم وتاريخ الرسالة سنة ٤١٧ هـ ، ولكننا نشك في نسبة هذه الرسالة إلى حمزة لأن أسلوبها يختلف جداً عن أسلوب حمزة ،

وفي رسالة الإعذار والإنذار التي بدون تاريخ يفهم منها أنها كتبت بعد اختفاء الحاكم بقليل وفيها يصرح حمزة بأنه الإمام وأنه سيغيب أيضاً على أن يرجع مرة أخرى بعد قليل ، ويصرح بهاء الدين المقتنى أنه عند ما غاب المعبود (أى الحاكم) امتنع قائم الزمان (أى حمزة) عن الوجود ، فمن ذلك كله نقول إن حمزة خاف على نفسه بعد اختفاء الحاكم ، واختفى هو الآخر ، أما كيف اختفى وأين اختفى ؟ فلا سبيل إلى الإجابة عن ذلك لعدم وجود النصوص التاريخية التي توضح ذلك ، غير أننا نفهم من الكتب المقدسة أن بهاء الدين الملقب بالمقتنى كان يعرف مكانه وكان متصلاً به ، وهناك نص آخر في هذه الكتب يشير إلى أن الإمام الظاهر بن الحاكم اضطهد أصحاب حمزة وتبعهم في كل مكان حتى إن الناس نسوا ذكر حمزة بعد أربعين يوماً فقط من ولايته الحكم .

وقام بأمر الدعوة في غيبة حمزة الداعي بهاء الدين أبو الحسن على بن أحمد السموقى المعروف بالضيف لأن مرتبته في الدعوة هي مرتبة الجناح الأيسر أو التالى وسنرى في حديثنا عن الحدود في العقيدة الدرزية أن من يشغل هذه المرتبة يكون لسان الدعوة وله من الحدود الجدد والفتح والخيال ، ومع ذلك فنحن نعجب لسكوت كتب القائد عن صهر حمزة والذي كان يليه في ترتيب الحدود والذي كانت له مرتبة ذى مصبة الذى امتص العلم عن حمزة ، وهو أبو إبراهيم إسماعيل بن حامد

التميمي ، فلم تذكره كتب العقائد الدرزية بعد غيبة حمزة كذلك لا تذكره كتب التاريخ ، وكذلك لم تذكر هذه الكتب شيئاً عن أبي عبدالله محمد بن وهب القرشي الذي كان يلي التميمي في مرتبة الحدود وليس عندنا ما نعلل به سكوت هذه الكتب عن هؤلاء الحدود العظام الذين قام المذهب على أكتافهم إلا أن نقول إنهم غابوا كما غاب حمزة والحاكم بأمر الله ، واستمر بهاء الدين الضيف يحمل عبء الدعوة ويكتب رسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الدخول في مذهبه ، كما كتب إلى الذين خرجوا عن المذهب بعد أن كانوا من دعائه مثل معاد بن محمد وظاهر بن تميم اللذين كانا داعيين ثم تحولوا عن عقيدة التوحيد فاضطر بهاء الدين إلى أن يكتب لهما رسالة التنبيه والتأنيب وتاريخها سنة ٤٢٢ هـ ، ويتضح من رسائله أن عدداً كبيراً من كبار دعائه أتوا بآراء جديدة على المذهب ، فالداعي سكين الذي كان رئيس الدعوة في سوريا وأصدر له بهاء الدين تقليداً سنة ٤١٨ هـ . ادعى أنه الإله المعبود ، وأنه الحاكم بأمر الله قد رجع من غيبته مما اضطر بهاء الدين إلى أن يكتب رسالة إلى الشيخ أبي اليقظان ليذهب إلى مكان معين ليقابل بهاء الدين ويطلعه على ما كان من أمر سكين ، كما كتب بهاء الدين رسالة أخرى سنة ٤٢٥ هـ ، تعرف برسالة الحقائق والإنذار والتأديب لجميع الخلائق بعث بها إلى أهالي جبل لبنان وأنطاكية وإقليم حوران ووادي التيم يشكو فيها من بعض الآراء التي انتشرت بينهم وهي آراء تختلف عن تعاليم حمزة بن علي ، ورمى الشيوخ الذين ينشرون هذه الآراء بينهم بأنهم دجالون مخادعون .

هكذا كان جهاد بهاء الدين الضيف عنيفاً شاقاً فالدولة التي كانت توازر العقيدة أيام الحاكم انقلبت تحاربها في عهد علي بن الحاكم المعروف بالظاهر ، وعاد المنافقون الذين اعتنقوا المذهب لأطماع شخصية وتحقيق منافع عاجلة يتلمسون الخلاص من ورطتهم ، كما أن الذين اعتنقوا المذهب خوفاً من الحاكم عادوا إلى عقيدة الفاطميين وكثرت الآراء الجديدة في المذهب الأمر الذي جعل بهاء الدين يهدد أتباعه باعتزال الدعوة وبالفعل اعتزلها سنة ٤٣٤ هـ ، بعد أن أقفل باب الاجتهاد حرصاً على المبادئ التي وضعها حمزة والتميمي وبهاء الدين نفسه ، ولذلك لم يظهر فقهاء مشرعون بعد بهاء الدين بل أصبح شيوخ الدروز يشرحون رسائل حمزة

والتي تسمى وبهاء الدين ، وظل الموحدون في هذه البقاع التي هم فيها إلى الآن دون أن يدخل غيرهم في مذهبهم أو أن يبشروا بعقيدهم . ويخيل إلى أن عقيدة غيبة الحاكم وحمزة وغيره من الحدود كان لها أثرها في الناس ، فقد استغل الدجالون والمشعوذون هذا الرأي وادعوا من وقت لآخر قرب ظهور الحاكم ، أو أنه ظهر فعلاً في صورة من الصور ، ومن هؤلاء كان الداعي سكين الذي تقلد دعوة المذهب الجديدة في الشام سنة ٤١٨ هـ ، ولكنه سرعان ما أوهم جماعته بأن الآله المعبود حل به وخاصة أنه كان يشبه الحاكم في ملامحه ، ثم جاء إلى مصر والتف حوله بعض مؤيديه ، وظهر سكين مع أصحابه على باب القصر الكبير بالقاهرة في رجب سنة ٤٣٤ هـ ، ونادى أصحابه بأنه الحاكم قد عاد ، فارتاع حرس القصر ، وتوقفوا عن صده ، غير أنهم سرعان ما عادوا إلى رشدهم وحملوا على سكين وأتباعه ، ودارت بين الفريقين معركة انهزم فيها أتباع سكين ، وقبض عليه ثم صلب مع جماعة من أتباعه .

وظهر بجبال صعيد مصر رجل قبضي اسمه شروط ، ادعى أنه الحاكم بأمر الله وأخذاً يجبي الأموال باسمه ، وجردت الدولة رجالها للقبض عليه فلم تتمكن لأنه كان يختفي في مغارات جبال الصعيد هو ورجاله ، وتسمى شروط بأبي العرب ، ثم نرح إلى إقليم البحيرة في غرب الدلتا ونزل عند بعض قبائل البدو وهو يتظاهر بأنه الحاكم بأمر الله وإنه يقيم في الصحراء بعيداً عن الناس لأمر لا يعرفه الناس إنما هي مسألة إلهية ، وتقول بعض المصادر الكنسية المصرية أن البطريق سانونيوس عرف مخبأه ، فأرسل إليه أموالاً ورعاه .

وفي الكتب الدرزية المقدسة رسالة كتبها المقتنى بهاء الدين الضيف سنة ٤٢٦ هـ نفهم منها أن شخصاً يعرف بابن الكردي ، اتخذ لنفسه رأياً يقرب من رأى سكين وأبي العرب مما جعل بهاء الدين يصفه بأنه « فرعون الدعي الكذاب المعتوه الشقي » .

وهكذا كانت عقيدة غيبة الحاكم وقرب عودته مثاراً لظهور عدة أشخاص يدعون بأنهم الحاكم بأمر الله مما يذكرنا بعقيدة المهدي المنتظر فكم من رجال ادعوا بأنهم المهدي هذا ! !

الباب الثالث

الفصل الأول

عقيدة الفاطميين أساس عقيدة الدروز

ذكرت من قبل أن الباحث في عقيدة الدروز يجب أن يكون ملماً إلماماً تاماً بعقيدة الشيعة الفاطمية ، ولذلك رأيت أن أوجز هنا الحديث عن عقائد الفاطميين التي اعتبرها الأساس الأول لعقيدة الدروز ، فالمصطلحات المذهبية الفاطمية تكاد تكون هي المصطلحات المذهبية عند الدروز ، وأحياناً نرى الذين وضعوا عقيدة الدروز يستعملون مصطلحات الفاطميين لمطلوبات جديدة كل البدة ، ومع ذلك كله فهي ليست بعيدة كل البعد عن آراء الفاطميين ، وفي كتب أخرى غير هذا الكتاب ذكرت أن الفاطميين اتخذوا جميع الفلسفات والديانات المختلفة وصبغوها بالصبغة الإسلامية على مذهبهم وعقيدتهم .

هناك حقيقة يجب أن نسجلها في حديثنا هنا ذلك أن الفاطميين جعلوا عقيدتهم تقوم على العمل والعلم أى ما يعرف بالظاهر والباطن . فالظاهر عندهم هو القيام بأداء جميع فرائض الدين الإسلامى التي وردت في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم في ذلك لا يختلفون عن جمهور المسلمين في شيء . وإذا قرأنا كتاب دعائم الإسلام الذي وضعه القاضي النعمان بن محمد ابن حيون المغربي وهو هذا الكتاب الذي اعتمد عليه كل الفقهاء الذين دانوا بالعقيدة الفاطمية بل لا يزالون يعتمدون عليه إلى الآن ، سنجد أن دعائم الإسلام هي الصلاة والزكاة والطهارة والصوم والحج والجهاد والولاية وهذه كلها يجب أن يقوم بها ويؤديها كل من يعتنق هذه الدعوة الفاطمية كما أنهم يعترفون بجميع الأنبياء والرسل على نحو ما يؤمن به المسلمون ، هذا كله هو ظاهر العبادة العملية ولكن بجانب ذلك أوجدوا العبادة العلمية أو الباطنية وهي تقوم على أساس أن لكل عمل وكل قول تأويلاً خاصاً لا يعرفه إلا أئمتهم وعلمائهم وهذا التأويل الباطنى هو الذى يفرقهم عن إخوانهم المسلمين وربما تبعد الهوة بينهم وبين المسلمين لغلو الفاطميين في تأويلاتهم هذه وربما كان

غلوهم في التأويل الباطني بسبب إسباغ مناقب خاصة وصفات عالية على أئمتهم وهذا ما حدث مع العقيدة الدرزية فسرى أن الدروز اهتموا بالتأويل اهتماماً كبيراً جداً وتركوا الظاهر تركاً تاماً ومن هذا نرى الاتفاق التام بين تأويل الفاطميين وتأويل الدروز .

ذهب الفاطميون إلى أن الله سبحانه وتعالى منزّه عن الصفات والأسماء لا شريك له وأنه ليس أيضاً وليس ليساً فهو ليس من جنس العقول حتى تدركه العقول وليس بجسم حتى يراه البصر ولا يحل في جسد فهم في توحيدهم هذا يقربون من آراء المعتزلة وأنه سبحانه أبداع العقل الكلي الذي أطلق عليه الفاطميون اسم السابق واسم المبدع الأول واسم القلم ثم بواسطة المبدع الأول هذا وجدت النفس الكلية التي أطلقوا عليها اسم التالي واسم المبدع الثاني واسم اللوح المحفوظ وبواسطة السابق والثاني وجدت المخلوقات كلها العلوية والجسمانية وتمسكوا بالحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم (أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ، وقال له أدبر فأدبر فقال بعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أعز منك ، بك أثيب وبك أعاقب » وذهبوا إلى أن العقل هو أرفع مبدعات الله وأقربهم إليه وهو عندهم « الخالق » الحقيقي وأولوا أسماء الله الحسنى الواردة في القرآن الكريم إلى أنها أسماء للعقل الكلي هذا ، وقد بينت في بحوثي السابقة عن الفاطميين أننا بتطبيق ما سميت به بنظرية « المثل والممثل » نعرف أن الإمام الفاطمي هو ممثل للعقل الكلي وأن جميع مناقب وصفات العقل الكلي تطلق أيضاً على الإمام ، فهو الواحد الأحد والفرد الصمد ، المحيي والمميت . . إلخ وكان لهذه العقيدة أثرها في أن يغلو كثير من الذين اعتنقوا دعوتهم وذهب بعضهم إلى تأليه الأئمة الأمر الذي أدى بالمعز لدين الله الفاطمي إلى أن يتبرأ من هؤلاء الغلاة ، وتأليه الأئمة فكرة قديمة سبقت ظهور الإسلام فالمصريون القدماء كانوا يؤلهون ملوكهم وبعض الفرق المسيحية يؤلهون المسيح ونقات هذه الآراء إلى بعض الفرق الإسلامية . فأبو الخطاب الأسدي مثلاً تلميذ الإمام جعفر الصادق ادعى ألوهية أستاذه وأنه (أي أبو الخطاب) هو نبيه ، ولا يزال ورثة آراء العلويين يقولون بتأليه علي بن أبي طالب ، ونزى الآن الإسماعيلية الأغاخانية يقولون بألوهية أغاخان ، والدروز يقولون بتأليه « الحاكم بأمر الله » وأن حمزة

ابن علي بن أحمد هو نبيه ، وهكذا كانت عقيدة تأليه الملوك والأئمة تنتقل من العصور القديمة إلى أن ظهرت عند بعض الفرق الإسلامية بتأثير اختلاط الشعوب بعضها ببعض وتداخل الآراء الدينية وغير الدينية ، فالفاطميون لم يصرحوا بتأليه الأئمة ولكنهم أسبغوا على الأئمة صفات جعلتهم فوق مرتبة البشر مما جعل تأليه الأئمة أمراً سهلاً ميسوراً عند الذين اعتنقوا دعوة الفواطم . وتتفرع من هذه العقيدة آراء أخرى نذكر منها انبعاث العقول الروحانية من العقل الكلي والنفس الكلية وأهم هذه العقول هي تلك التي أطلقوا عليها الجدد والفتوح والخيال وهؤلاء عندهم الملائكة الروحانيون الذين يعرفهم العالم الإسلامي باسم إسرائيل وميكائيل وجبرائيل ، وهؤلاء العقول مع العقل الكلي والنفس الكلية يكونون الأشباح الخمسة العلوية أو الحدود العلوية ، وجعلوهم ممثلات للقائمين على الدعوة الإسماعيلية فالعقلي الكلي (السابق) ممثل للناطق في عصره والوصي والإمام والنفس الكلية (التالي) ممثل للوصي في حياة الناطق أو باب الأبواب .

والجد	ممثل للحجة
والفتح	» للداعي المأذون
الخيال	» للداعي المكالب (المكاسر)

ومن ثم جعل الفاطميون مراتب الدعاة من المراتب الروحية التي تقام عليها دعوتهم وعلى كل من يعتنق مذهبهم أن يعترف بهؤلاء الدعاة على أن يكون هذا الاعتراف من صميم العقيدة ويجب طاعتهم طاعة عمياء وتصديق كل ما يقولون والاقتراء بما يفعلون ، وأطلق الفاطميون على هؤلاء الدعاة اسم الحدود الجسمانية إمعاناً في تقديسهم ورفع شأنهم بين الناس ، بل ذهبوا إلى أن الناطق أو الإمام معصوم عصمة ذاتية وأن هؤلاء الدعاة معصومون عصمة مكتسبة ، وأن هؤلاء الدعاة كانوا مع النطقاء والأئمة في كل دور من الأدوار الكبرى والأدوار الصغرى ولشرح ذلك نقول إن الفاطميين لم يقولوا بالتناسخ في صراحة بل سخرُوا من الذين يعتنقون فكرة التناسخ وناقشوا أصحاب هذه المقالة وما هو أحد شعراء العقيدة الفاطمية يقول :

والذي قال إنه النسخ والفسخ وماذا بغير دنيا حلول
فهو عن جوهر النفوس البسيطة ومن حيث بدتها مسؤل

فلئن كان يثبت الأصل منها فكذا نحوه يكون القول
ولئن كان نافياً قيل مهلاً فلهذا المشاهدات أصول

وبالرغم من ذلك فإننا إذا أمعنا النظر في عقيدتهم التي أطلقت عليها اسم « نظرية الدور في العقيدة الفاطمية » سنجد أنها تقول بظهور الأنبياء والأئمة في صور متعددة ولكن أصلهم واحد، فآدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وهم الأنبياء عند الفاطميين ظهوروا في هذه الصور الآدمية المختلفة وفي عصور متفاوتة ولكنهم جميعاً شخص واحد في الحقيقة ، ولما كان أوصياؤهم وأئمتهم في كل دور ورثة الأنبياء ولهم كلهم خصائص الأنبياء فهم والأنبياء شخص واحد ، فالجميع مثل للعقل الكلى ، ففكرة التناسخ ظهرت في العقيدة الفاطمية في صورة جديدة هي التي سميتها « بنظرية الدور » ، وكان لهذه الفكرة أثر كبير في الحياة العقلية عند بعض الفرق الإسلامية مثل فرقة المرزامية والمقنعية وستحدث عن أثرها عند الدروز ، والدور الكبير هو الدور الذي من ظهور آدم النبي (الناطق) وظهور قائم القيامة (المهدي المنتظر) فإن آدم عندهم ليس أول الخلق بل هو أول ناطق في دوره ، وقد شهد العالم منذ وجد عدداً كبيراً كل منهم آدم وسيشهد العالم عدداً آخر ، وينتهي دور كل منهم بظهور المهدي المنتظر ، فهذه هي الأدوار الكبرى عندهم أما الأدوار الصغرى فهي التي بين ظهور ناطق وناطق ، فالدور الذي بين ظهور آدم وظهور نوح هو الدور الصغير لآدم ، ونحن الآن في دور محمد وسينتهي دوره بظهور قائم القيامة وكذلك ينتهي دور آدم الكبير ويأتي بعده دور آدم آخر ، وكما ذكرت من قبل الأدوار الكبرى متشابهة بما فيها الأدوار الصغرى ، فكل ما حدث في دور صغير حدث مثله تماماً في جميع الأدوار الصغرى الأخرى في نفس الدور الكبير وفي كل الأدوار الكبرى الأخرى .

وتنبعث من هذه الآراء تأويلات جديدة لما ورد في القرآن الكريم من قصص الأنبياء لتحقيق الأدوار الكبرى والصغرى ولإثبات أن ما حدث في دور كل نبي حدث مثله في جميع الأدوار الأخرى ، فمثلاً قصة الطوفان في التأويل الباطن عند الفاطميين تدل على كثرة الأضداد المخالفين لمن أقامه الله وصياً لنوح وتغلبهم عليه وأن المؤمنين هم الذين اتبعوا الوصي الذي رمز إليه بسفينة نوح ، وفي كل دور

من أدوار النطقاء ظهر هذا الطوفان وجرت السفينة ، وبهذا يؤولون القول المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم « مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق في الطوفان » .

وحواء أو المرأة التي ترد في قصص الأنبياء ليس المعنى المقصود من ذكرها أنها الأنثى التي يسكن إليها الرجل وينجب منها ذريته إنما هي في التأويل الباطن رمز إلى حجة الناطق أو الإمام الذي يودعه الناطق علم الباطن فينقله إلى المستجيبين لتغذية أرواحهم وتربية المؤمنين بهذا العلم ، وهكذا أول الفاطميون قصص الأنبياء تأويلاً باطنياً تطبيقاً « للنظرية الدور » وإثبات أن جميع الأنبياء والأئمة هم في الحقيقة شخص واحد لأنهم جميعاً مثل لمثول واحد وهو العقل ، وكان لابد لهم أيضاً أن يتخذوا تأويلات لكل آيات القرآن حتى تتسق مع عقيدتهم في « الأدوار » و « المثل والمثول » ، فالجنة عندهم هي الدعوة ، والنار عدم موالاة الأئمة ، والملائكة هم الدعاة ، والكرسى والعرش هما الدعوة ، والميزان والصراط المستقيم هما الإمام وهكذا .

واتخذ الفاطميون الأعداد أصولاً لآراء دينية يشبّهون بها عقيدتهم في الإمامة ، واتخذ الأعداد ليس بجديد على الفكر البشري فنحن نعرف أن الفلسفة الفيثاغورية تقوم على أن كل عدد أصلاً لآرائهم . واتخذ العبرانيون العدد « سبعة » أصلاً لكثير من عقائدهم وانتقل التسبيع إلى البابلية القديمة ، واتخذ الحرنانيون العدد « خمسة » أصلاً لعقيدتهم ، ومن الفرق من اتخذ الثنوية ، ومنهم من اتخذ التثليث ، وهكذا ولكن الفاطميين لم يتخذوا عدداً بعينه بل كان لكل عدد عندهم فلسفة فقد قالوا بالازدواج والتثليث ، واتخذوا العدد أربعة لفلسفة أركان الطبيعة ، وقالوا بالعدد الخمسة الذي يمثل الحدود العلوية وهكذا إلى آخر الأعداد ، فلكل عدد أصل عندهم ولم يقفوا عند عدد بعينه ، ولكنهم لم يستخدموا حساب الجمل في إثبات آرائهم مع أنهم استخدموا هذا العلم في التنجيم فحساب الجمل كان معروفاً لديهم ولكنهم لم يعترفوا به في أمور الدين مثل ما فعلوه مع الأعداد التي تشاهد في ترتيب الخلق حتى قالوا « إن الله أسس دينه على مثال خلقه ليستدل بخلقهم على دينه وبدينه على وحدانيته » فمثلاً قولنا « لا إله إلا الله » قالوا إن فيها أربع كلمات وفيها سبع مقاطع وعدد حروفها جميعها اثنا عشر ، وفيها نون في الأول

وإثبات في الآخر (النفي قولنا « لا إله » والإثبات قولنا « إلا الله ») والنفي والإثبات فصلان ، وتركيب الكلمة جميعها من ثلاثة أحرف « الألف واللام والهاء » وكثرت الأحرف بالتكرار فيكون فيها ثلاثة فصول ، ومجموع ذلك كله ثمانية وعشرون ، فأمثلة ذلك في المخلوقات وفي الدين أن النفي والإثبات مثل الكواكب الثابتة وغير الثابتة ، والأحرف الثلاثة مثل الجواهر الثلاثة الشمس والقمر والنجوم ، والكلمات الأربع مثل الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ، والمقاطع السبعة مثل المدبرات السبعة والحروف الاثنا عشر مثل البروج الاثنا عشر هذا في عالم السماء ، وفي عالم الأرض النفي والإثبات مثل العامر والخراب ، والجواهر الثلاثة مثل الطول والعرض والعمق ، والكلمات الأربع مثل التراب والمعادن والنبات والحيوان والمقاطع السبع مثل الأقاليم السبعة ، والحروف الاثنا عشر مثل الجزائر الاثنا عشر وهكذا أوجدوا لكل عدد مثلاً في السماء والأرض والأيام واستدلوا بذلك كله على الدين وكذلك أولوا الفرائض الدينية كلها تأويلاً خاصاً ، فالنية للصلاة هي ولاية الأئمة والطهارة هي أخذ علم الباطن لتطهير النفس ، والصلاة هي الدعوة الفاطمية ، والكعبة هي الأمام الذي يتوجه إليه المستجيب ، وهكذا . على أن هذا التأويل أو علم الباطن خص به الوصى إذ كان للنبي التنزيل ولعلي بن أبي طالب التأويل ، وكل حجة هو صاحب التأويل في عصره ولذلك كان حجة الإمام هو الذي يعد مجالس الحكمة التأويلية التي يلقيها على جمهور المستجيبين ، ولما كان كل حجة يختلف عن الآخر في ثقافته وذاتيته فقد اختلف التأويل الفاطمي باختلاف شخصية الدعاة وجاء تأويلهم تأويلاً شخصياً ، ثم إنهم ستروا هذا التأويل عن الذين اعتنقوا العقيدة بحيث لم يطلعوا أحداً على أسرارها إلا لمن يستحقها فقط فتأويلات الداعي منصور اليمن الذي مهد للدعوة في بلاد اليمن قبل ظهور الفاطميين بالمغرب تميل إلى الغلو وهي أشبه بما كان يقوله أصحاب فرق الغلاة مثل السلمانية والخطابية وغيرهما وتأويلات دعاة فارس بعد قيام الدولة الإسماعيلية الفاطمية بالمغرب تختلف عن تأويلات الدعاة الذين كانوا بالقرب من الأئمة بالمغرب إذ في تأويلات دعاة فارس التأليه الصريح للأئمة والدعوة إلى طرح الفرائض الدينية ، أما التأويل الباطني في العصر الفاطمي في مصر فقد زال الغلو إلى درجة أن الدعاة اضطروا إلى استنكار كل رأى

يشم منه الغلو ، فمثلا كان الأئمة في المغرب يدعون معرفة الغيب ، ولكنهم أنكروا هذه الدعوى وهم في مصر ، واضطروا إلى تغيير كثير من تأويلاتهم الباطنية ، فتأويل « والفجر وليال عشر » في المغرب أن الفجر هو علي بن أبي طالب وكل إمام بعده ، وأن الشفع والوتر هما الحسن والحسين ولدا علي بن أبي طالب ولكن في مصر أول الفجر بأنه المهدي المنتظر المعروف عندهم باسم قائم القيامة لأنه يظهر بعد انتشار الضلال كما أن الفجر يأتي بعد شدة الظلام ، فبالرغم من أن تأويل الداعي بالمغرب يتفق في هدفه الأخير مع تأويل الداعي في مصر فإن هذا الأخير كان أكثر منه حذراً في التصريح بأن الفجر هو الإمام ، وكان للنكت المصرية أثرها في تخفيف غلو العقيدة الفاطمية ، ولا تزال كتب التاريخ تحمل فكاهات المصريين حول عقيدة الفاطميين والأئمة الفاطميين .

ومهما يكن من شيء فإننا سنرى أن عقيدة الدروز أخذت عقيدة عن الفاطميين ، وقد لا حظنا من قبل أن عقائد الفاطميين هي مجموعة من عقائد وفلسفات قديمة صيغت في صورة إسلامية .

كتب الدروز المقدسة

قبل أن أشرح عقائد الدروز أرى أن ألم ببعض كتبهم المقدسة التي وقعت بين يدي ، ولا أدري إن كان الدروز يحتفظون بكتب أخرى غير التي عندي أم لا ، فإنهم يحافظون محافظة شديدة على ستر كتبهم ويحرصون على أن لا تقع في أيدي غيرهم ، والذي ألاحظه على هذه الكتب أن بعضها يحتوي على سجلات صدرت في عصر الحاكم وهذه السجلات إنما كتبها كتاب ديوان الإنشاء في مصر ، وبعضها يحتوي على رسائل بعث بها حمزة بن علي بن أحمد الملقب بهادي المستجيبين إلى أشخاص كانوا يحتلون مكانة في الدولة مثل ولي العهد عبد الرحيم بن إلياس والقاضي أحمد ابن العوام ، وخمار بن جيش السليمانى العكاوى أو رسائل لدعاة الدعوة الذين لا نعرف شيئاً عن تاريخهم ، ومنها ما كتبه حمزة عن العقيدة نفسها ، ثم نجد بعض رسائل للداعي محمد بن إسماعيل التميمي ، ورسائل لبهاء الدين المعروف بالمقتنى ، فحمزة بن علي ومحمد بن إسماعيل وبهاء الدين هم الذين كتبوا هذه

الرسائل التي تشتمل عليها كتب الدروز المقدسة ، على أن بعض هذه الرسائل ذكر فيها تاريخها وبعضها الآخر من غير تاريخ ، وكنا نود أن تكون الرسائل كلها مؤرخة حتى نستطيع أن نتبع تطور عقيدة الدروز في حياة حمزة وبعد حياته ، وما أضيف إلى العقيدة على يد المقتنى ، ولتركنا هذا البحث العلمي الدقيق الآن ولنا عودة إليه قريباً إن شاء الله .

وكتب الدروز التي بين يدي هي كما قلت مجموعات رسائل ، فالجلد الأول يشتمل على الرسائل الآتية :

(١) السجل المعلق : وهو السجل الذي وجد معلقاً على المشاهد عقب غيبة الحاكم فتاريخه إذن سنة ٤١١ هـ ، ويخيل إلى أن هذا السجل لا يمت لعقيدة الدروز بشيء ، بل عندى أن الذي كتب هذا السجل هو كاتب الإنشاء بمصر أو حجه العراقيين أحمد حميد الدين الكرمانى لأنه يظهرلى من السجل أنه فاطمى العقيدة ، فالحاكم ليس بمعبود إنما هو ولى الله وخليفته فى أرضه وأنه أمير المؤمنين ثم الإشارة بدين الإسلام وبالرسول محمد عليه الصلاة والسلام فنجد فى السجل مثلاً « ومن نعمه (أى من نعم الإمام الحاكم) الباطنة عليكم إحيائه لسنن الإسلام والإيمان التى هى الدين عند الله وبه شرفتم وطهرتم . وعمر المساجد وزخرفها وأقام الصلاة فى أوقاتها والزكاة فى حقها وواجباتها ، وأقام الحج والجهاد وعمر بيت الله الحرام وأقام دعائم الإسلام » . . إلى غير ذلك من الآراء التى رفض حمزة بن على الاعتراف بها فى رسائله التى كتبها سنة ٤٠٨ هـ .

(٢) السجل المنهى فيه عن الحمر : وهو صادر من ديوان الإنشاء سنة ٤٠٠ هـ وهو أيضاً من سجلات الفاطميين وليس من سجلات الدروز .

(٣) خبر اليهود والنصارى ، وهو رواية على لسان أحد الذين كانوا مع الحاكم بأمر الله حينما جاءه وفد من اليهود والنصارى يطلبون منه الأمان ، ولم يذكر لها تاريخ ، ويخيل إلى أنها من رسائل وكتابات دعاة الفاطميين أيضاً لما فيها من اعتراف بأن الحاكم من أئمة شريعة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه كان يلقب فيها بأمر المؤمنين .

(٤) رسالة من القرمطى إلى الحاكم بأمر الله يتوعده ويهدده إن لم يسلم البلاد له ، وجواب الحاكم عليه .

(٥) ميثاق ولى الزمان ، وهو الميثاق الذى يؤخذ على كل مستجيب للعقيدة الدرزية .

(٦) كتاب النقض الخفى ، وتاريخه شهر صفر سنة ٤٠٨ هـ ، وهو من وضع حمزة بن على بن أحمد ، وهو الكتاب الذى نقض به حمزة الشرائع جميعاً وقال بالباطن المحض ؛ ويظهر أن هذا الكتاب قد أضيفت إليه عبارات ونصوص بعد هذا التاريخ الذى أرخ به ، فإنى أجد فيه بيتين من قصيدة للمؤيد الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٠ هـ منسوبين للحاكم ، مع أن البيتين فى الإشادة بأن الأئمة من أهل بيت النبى هم الكعبة حسب التأويل الباطنى عند الفاطميين ، مع أن البيت عند حمزة هو توحيد الحاكم ، فلا يمكن إذن أن يستشهد بالبيتين فى هذا الموضع ، مما يدل على أنهما أضيفا بعد عصر حمزة ، وبعد أن أنشدهما المؤيد فى الدين .

(٧) الرسالة الموسومة ببدء الدعوة لتوحيد الحق وهى من رسائل حمزة كتبها فى رمضان سنة ٤٠٨ هـ ، وهى رسالة طويلة هامة ففيها التأويل الذى احتج به حمزة على اللاهوت وعن إسقاط الفرائض ثم الحصول التى فرضها على الموحدين .

(٨) ميثاق النساء وهى من كتابات حمزة أيضاً وليس بها تاريخ ، وبها العهود التى تؤخذ على النساء حتى يحتفظن بعفافهن ومكارم أخلاقهن ، مع الوصاية بمبادئ التوحيد .

(٩) رسالة البلاغ والنهاية فى التوحيد من تأليف حمزة بن على كتبها فى شهر المحرم سنة ٤٠٩ هـ .

وفى هذه الرسالة حديث هام عن مآل الكافرين ومصير الموحدين أى عن الثواب والعقاب وعما يعرف فى جميع الأديان بيوم القيامة .

(١٠) رسالة الغاية والنصيحة وهى من تأليف حمزة أيضاً كتبها فى ربيع الآخر سنة ٤٠٩ هـ .

وهى فى إثبات رسالته وفيها الحديث عن الخلاف بينه وبين الدرزى وابن الحبال وغيرهما .

(١١) كتاب فيه حقائق ما يظهر قدام مولانا الحاكم من الهزل من كتابات حمزة وهى بدون تاريخ ولكن يظهر أنها كتبت قبل اختفاء الحاكم سنة ٤١١ هـ ،

وفىها تأويل ما كان يفعله الحاكم يومئذ ، وقد نقلنا منها فصلاً كبيراً فى حديثنا عن الحاكم .

(١٢) السيرة المستقيمة ، وهى من كتابات حمزة كتبها فى جمادى الأخرى سنة ٤٠٩ هـ ، وهى فى الأدوار الكبرى والصغرى والحدود .

(١٣) كشف الحقائق من كتابات حمزة بتاريخ رمضان سنة ٤٠٩ هـ ، وهى فى حدود الدين والفرق بين الحدود عند الفاطميين والحدود فى دعوة الحاكم ، فى لاهوت المعبود وناسوته .

(١٤) رسالة سبب الأسباب وهى من كتابات حمزة وبدون تاريخ فيها حديث عن الدعاة ، وعن رسالته إلى الناس وسبب تسمية نفسه علة العلل وتأويل بسم الله الرحمن الرحيم . هذه هى الرسائل التى يشتمل عليها المجلد الأول من كتب الدروز المقدسة ، أما المجلد الثانى فهو يشتمل على الرسائل الآتية :

(١) الرسالة الدامغة فى الرد على النصيرى وهى من رسائل حمزة ، وهى من أهم الرسائل التى وردت فى هذا المجلد لأنها تعطينا فكرة عن آراء بعض الفرق التى طرحت الأديان كلها واتجهت إلى الإباحية الجنسية بحيث إن المؤمنة بهذه العقيدة لا تمنع نفسها عن أحد إخوانها ، كما أن بها لونا من شيوعية المال ، وهذه الآراء تخالف عقيدة الدروز ، ثم تعطينا الرسالة فكرة عن الثواب والعقاب عند النصيرية والدروز إلى غير ذلك من الآراء التى تفيد المؤرخين .

(٢) رسالة الرضى والتسليم كتبها حمزة بن على فى ربيع الآخر سنة ٤٠٨ هـ فيها تأويلات لإثبات الألوهية وتدعيم مركزه فى الدعوة وما كان من مخالفة الدرزي وإخوانه له وما سيكون فى الآخرة لكل من الموحدين والمخالفين .

(٣) رسالة التنزيه كتبها حمزة فى شهر جمادى الآخر سنة ٤٠٩ هـ ، وفىها ذكر للحدود وبيان مراتبهم ، والفرق بين الحدود عند الفاطميين والحدود عند حمزة .

(٤) رسالة النساء الكبرى . لم يذكر كاتبها ولا تاريخها ويخيل إلى أنها بقلم إسماعيل بن محمد التيمى فأسلوبها أقرب إلى أسلوبه من كتابات حمزة ، ثم إنها أقرب إلى المجالس التى كانت تلقى فيها تعاليم الدعوة ، وفىها نتيين أن دعاة حمزة كانوا

يعقدون مجالس خاصة بالنساء أسوة بما كان يتبع في الدعوة الفاطمية . وهذا المجلس يتحدث عن التأليه وعن تأويل بعض السجلات التي أظهرها الحاكم وتأويل أركان الدين الإسلامي والحض على التمسك بالفضائل .

(٥) الصبحة الكائنة : وهي من رسائل حمزة كتبها في شعبان سنة ٤٠٨ هـ بعث بها إلى الدعاة من أصحاب الدرزي الذين اعتقلهم الحاكم وفيها عتاب لهم لاتباعهم الدرزي بعد أن كانوا من أتباع حمزة ، وكيف حذرهم حمزة ليلة الثورة الكبرى التي قام بها المصريون ضد دعاة التأليه عند قصر الحاكم ، وكيف هرب حمزة والتجأ إلى مخبأ ، فهذه الرسالة مهمة من الناحية التاريخية فإن ما بها من حوادث لا نجد مثيلاً لها في كتب التاريخ .

(٦) سجل المجتبي . من رسائل حمزة وهي خاصة بتعيين إسماعيل بن محمد التميمي في مرتبته الدينية ، وما يتبع ذلك من ألقاب وتحديد عمله .

(٧) تقليد الرضى . من رسائل حمزة وهي خاصة بتعيين أبي عبد الله محمد ابن وهب في مرتبته الدينية .

(٨) تقليد المقتنى . من رسائل حمزة وهي خاصة بتعيين أبي الحسن علي بن أحمد السموقى في مرتبته الدينية .

(٩) رسالة حمزة إلى أهل الكدية البيضاء يدعوهم إلى سؤال نقيب النقباء حسن ابن هبة الرفا في أمورهم .

(١٠) رسالة حمزة إلى الموحدين من أهل انصنا (إسنا الحالية من مدن صعيد مصر) كتبها في عشرة جمادى الآخرة سنة ٤١٠ هـ ، يدعوهم إلى الصبر والتسليم لقضاء الله .

(١١) شرط الإمام صاحب الكشف ، لم يذكر كاتبها ولا تاريخها ، والهام في هذه الرسالة هو المعاملة الزوجية .

(١٢) رسالة إلى ولي العهد عبد الرحيم إلياس وهي من رسائل حمزة ، وفيها يدعو حمزة إلى الاعتراف بألوهية الحاكم .

(١٣) رسالة إلى خمار بن جيش السليمانى البكاوى وهي من رسائل حمزة وفيها يحذره من القول بأنه أخو الحاكم .

- (١٤) رسالة إلى قاضى القضاة أحمد بن العوام وهى من رسائل حمزة يدعو فيها إلى خلع نفسه لأن أحكامه لا قيمة لها لأنه لا يخضع لألوهية الحاكم .
- (١٥) مناجاة ولي الحق : وهى بمثابة الأوراد التى يتلوها الصوفية .
- (١٦) الدعاء المستجاب : وهذه مناجاة أخرى .
- (١٧) التقديس دعاء الصادقين : وهذه دعاة ثالثة .
- (١٨) ذكر معرفة الإمام : وهى أسماء وألقاب الحدود .
- (١٩) رسالة التحذير والتنبيه ، وهى من رسائل حمزة وفيها الحديث عن مكانته ومرتبته وأنه هو الإمام والناطق الحقيقى الذى خلقه الله قبل أن يخلق السموات والأرض .
- (٢٠) رسالة الإعذار والإنذار ، وهى من رسائل حمزة وتتحدث عن ضرورة التمسك بعقيدة التوحيد ومعرفة الحدود وما سيناله الموحد من ثواب على يد حمزة .
- (٢١) رسالة الغيبة وهى الرسالة التى بعث بها الدعاة من القاهرة إلى الموحدين بالشام على يد الدعى أبى يعلى بعدة شهور من غيبة الحاكم فىكون تاريخها إذن سنة ٤١١ هـ ، وهى فى الحضر على الاستمساك بالعقيدة وعدم التخاذل أو الرجوع عنها بعد غيبة الحاكم .
- (٢٢) كتاب فيه تقسيم العلوم من تأليف إسماعيل بن محمد التيمى وتاريخ كتابته المحرم سنة ٤١٠ هـ ، وهو كتاب يجمع التفريق بين اللاهوت والناسوت والحدود فى كل دور ، وحدود دعوة حمزة .
- (٢٣) رسالة الزناد وهى من تأليف إسماعيل بن محمد التيمى ولا يعرف تاريخها وفيها يشبه النفس بالحجر فإذا لم تجد النفس ما يهذبها ويعلمها مالت إلى الجهل شأن الحجر إذا حركه القادح اندفع منه الشرار .
- (٢٤) رسالة الشمعة من تأليف إسماعيل بن محمد التيمى وكتبت فى عهد الحاكم لأنها رفعت إليه ، وفيها تمثيل حدود الدعوة بأجزاء الشمعة .
- (٢٥) رسالة الرشد والهداية من تأليف إسماعيل بن محمد فيها تحذير ووعد ووعيد .
- (٢٦) شعر النفس وهى قصيدة بث إسماعيل بن محمد بها عقيدة التوحيد .

أما المجلد الثالث الذى بين يدي فأكثر ما به رسائل كتبها المقتنى بهاء الدين الضيف ولم يذكر تاريخ أكثر هذه الرسائل ، أما الرسائل فهي :

(١) الوصايا السبع للموحدين .

(٢) رسالة التنبيه والتأنيب والتوبيخ والتوقيف كتبها بهاء الدين سنة ٤٢٢ هـ ، إلى معاد بن محمد وطاهر بن تميم الداعيين للدين لم يثبتا على عقيدتهما ، وبالرسالة بحث على التظاهر بمذهب التوحيد أثناء غيبة المعبود .

(٣) رسالة في مثل ضربه بعض حكماء الديانة توبيخاً لمن قصر عن حفظ

الأمانة

(٤) رسالة إلى بنى أبي حمار ، وهي من رسائل المقتنى أيضاً وفيها حديث عن أن الألوهية لم تنتقل من الحاكم بأمر الله إلى ولده على المعروف بالظاهر .

(٥) مرسوم بتقليد الشيخ المختار في مرتبة لاحق ، وهو بتاريخ سنة ٤١٨ هـ ،

(٦) مرسوم تقليد سكين الذى أصبح رئيس المذهب في سوريا ثم عاد وادعى أن الإله حل به ، وأنه هو الحاكم ، والتقليد صدر سنة ٤١٨ هـ .

(٧) تقليد الشيخ أبى الكتائب .

(٨) تقليد الأمير ذى المحامد أبى الفوارس معضاد بن يوسف ، وكان أحد

الدعاة تحت الداعى سكين .

(٩) تقليد بنى الجراح ، ونحن نعلم أن بنى الجراح الطائيين كانوا قد ثاروا

على الحاكم إبان حياته واستدعوا شريف مكة الحسن بن جعفر وبايعوه خليفة عليهم ولقبوه بأمر المؤمنين الراشد لدين الله ، واستفحل أمر بنى الجراح حتى بسطوا نفوذهم على جنوب الشام كله ثم صانعهم الحاكم واستألمهم بالأموال والهدايا والخراج حتى عادوا إلى طاعته ، وما هم يعتنقون عقيدة ألوهية الحاكم ويصدر إليهم بهاء الدين تقليداً بذلك .

(١٠) الرسالة الجمهرية ، كتبها بهاء الدين سنة ٤١٨ هـ ، إلى بعض الدعاة

والمشايع التوحيين بوادى التيم وجبل لبنان .

(١١) رسالة التعنيف والتهجين بعث بها إلى جماعة من قبيلة كتامة كانوا

يسكنون مدينة سنهور بمصر .

(١٢) رسالة الوادى . بعث بها إلى الدعاة فى قرية الوادى إحدى قرى مديرية الشرقية بالجمهورية العربية المتحدة .

(١٣) رسالة القسطنطينية وهى الرسالة التى بعث بها بهاء الدين المقتنى إلى الإمبراطور قسطنطين إمبراطور الروم سنة ٤١٩ هـ ، يدعو فيه إلى الدخول هو وشعبه فى مذهب التوحيد .

(١٤) الرسالة المسيحية وأم القلائد النسكية وقامعة العقائد الشركية بعث بها إلى المسيحيين جميعاً يثبت لهم فيها أن حمزة بن على هو المسيح حقاً ، وأنهم على ضلال إن لم يؤمنوا بعقيدة التوحيد .

(١٥) رسالة التعقب والافتقاد ، وفى هذه الرسالة ذكر رسالة أخرى اسمها الرسالة النورانية ، وهذه الرسائل التى تبدأ من الرسالة القسطنطينية ، تكالِب رجال الدين المسيحي وتؤول آيات الإنجيل تأويلات تتفق مع عقيدة التأليه ، ورسالة التعقيب هذه بعث بها بهاء الدين إلى الأمير ميخائيل صهر الإمبراطور قسطنطين (١٦) رسالة الإيقاظ والبشارة لأهل الغفلة وأهل الحق والطهارة ، تاريخها سنة ٤٢٣ هـ ، بعث بها إلى أهل العراق وفارس ، وفيها البشارة بقرب ظهور حمزة بن على .

(١٧) رسالة الحقائق والإنذار والتأديب لجميع الخلائق ، تاريخها سنة ٤٢٥ هـ أرسلت للذين اعتنقوا الدعوة فى لبنان ووادى التيم والجبل الأعلى ، وفيها يشكو بهاء الدين من بعض الآراء الجديدة التى كان يذيعها بعض شيوخ المذهب فى هذه البقاع جهلاً منهم بحقيقة المذهب والعقيدة .

(١٨) الرسالة الشافية لنفوس الموحدين ، وهى فى وعظ الموحدين ومحاولة تثبيت عقيدتهم وعدم تزعزع إيمانهم .

(١٩) رسالة العرب ، بعث بها إلى أهل سوريا والحجاز واليمن والجزيرة والعراقين وصعيد مصر ، يدعوهم فيها إلى مذهب التوحيد .

(٢٠) رسالة اليمن ، كتبها سنة ٤٢٥ هـ إلى الموحدين باليمن .

(٢١) رسالة الهند ، بعث بها سنة ٤٢٥ هـ إلى الشيخ الرشيد ابن صومار راجا بال بالهند ، ويتضح من هذه الرسالة أنه كان فى إقليم السند وفى الملتان

عدد من الذين اعتنقوا مذهب التوحيد ، ونحن نعلم أن هذه المنطقة بالهند كان بها عدد كبير من الإسماعيلية .

(٢٢) رسالة التقرير والبيان وإقامة الحجّة لولى الزمان . بعث بها إلى أهالى القاهرة والفسطاط ، يعتب عليهم عدم تصديق دعوى ألوهية الحاكم .

(٢٣) رسالة تأديب العاق من الأولاد ، وهى فى الحديث عن تناسخ الأرواح وكيف تتغير صور العاصين الذين لا يعترفون بألوهية الحاكم بأمر الله .

(٢٤) الرسالة القامعة ، كتبها بهاء الدين سنة ٤٢٦ هـ يرد فيها على ابن الكردى الذى ادعى أن روح الحاكم حلت به .

(٢٥) كتاب أبى اليقظان ، وهذه رسالة بعث بها بهاء الدين إلى الشيخ أبى اليقظان ليذهب لمقابلته فى مكان منفرد ليحدث بهاء الدين عن حالة الدعوة بعد أن أظهر سكين أنه الحاكم .

(٢٦) رسالة تمييز الموحدين الطائعين من حزب العصاة الفسقة الناكثين .

(٢٧) رسالة من دون قائم الزمان والهادى إلى طاعة الرحمن .

(٢٨) رسالة السفر إلى السادة كتبها بهاء الدين سنة ٤٣٠ هـ إلى جملة من

مشايخ العرب يدعوهم إلى الطاعة .

أما المخطوطة الرابعة فهى مجموعة رسائل هامة تدلنا على مقدار الشقاء الذى عانى به بهاء الدين لكثرة ظهور البدع فى المذهب ، وقيام المنافقين ، وكيف كان بهاء الدين يرسل إليهم يوبخهم ويدعوهم إلى التوبة ، ولعل هذه المجموعة من أهم الكتب فى تاريخ العقيدة بعد غيبة الحاكم وحمزة ، وقد اضطر بهاء الدين أخيراً إلى الغيبة بعد أن يش من إصلاح رعيته أما الرسائل التى اشتملت عليها هذه المجموعة فهى :

١ - رسالة معراج نجاة الموحدين ، وهى فى البشارة لمن اعتنق المذهب .

٢ - رسالة فى ذكر المعاد ، وهى فى الحديث عن المعاد حسب عقيدتهم والرد

على من عبر بالغلط والإلحاد .

٣ - رسالة التبيين والاستدراك وهى فى شرح بعض العقائد والفرق بين

الإلحاد والشرك .

٤- الرسالة الإسرائيلية ، وهي في الرد على عقائد اليهود الذين اعتبرهم بهاء الدين أعداء مذهبه .

٥- الرسالة الموسومة بأحد وسبعين سؤالاً ، وهي عبارة عن أسئلة وجهت إلى بهاء الدين من مخالفين عقيدته وردده عليها ، وهي من أقوم الرسائل المنهجية وتحتوى على آراء جديدة كل الجدة لم نعرفها في رسائل حمزة .

٦- رسالة إيضاح التوحيد ، وفيها الرد على من ينكر ألوهية الحاكم .

٧- رسالة في ذكر الرد على أهل التأويل (أى على اتباع المذهب الفاطمى) الذين ينكرون ظهور المعبود فى الصور المختلفة .

٨- توبيخ ابن البربرية ، وهي الرسالة المعروفة بالدامغة للفاسق النجس ، الفاضحة لأتباعه أهل الردة والبليس .

٩- توبيخ لاحق .

١٠- توبيخ الخائب العاجز سكين .

١١- توبيخ ابن أبى حصين .

١٢- توبيخ سهل .

١٣- توبيخ ابن معلى .

١٤- توبيخ الخائب محلى .

١٥- رسالة البنات الكبيرة .

١٦- رسالة البنات الصغيرة .

١٧- رسالة في الرد على المنجمين .

١٨- رسالة بدء الخلق ، وهي في الرد على سؤال أحد أتباعه .

١٩- رسالة الموعظة .

٢٠- رسالة المواجهة ، يظهر أن بهاء الدين بعث بها إلى حمزة يوصى بأحد

الأشخاص .

٢١- مكاتبة الشيخ أبى الكتائب ، بتفويضه والإذن له بالدعوة .

٢٢- منشور إلى آل عبد الله .

- ٢٣ - جواب كتاب السادة ، وهي جواب عن رسالة بعث بها جماعة من لبنان إلى بهاء الدين .
- ٢٤ - الكتابة المنقذة على يد سرايا ، وهي رسالة تتعلق ببعض أهـور تجارية .
- ٢٥ - مكاتبة تذكرة .
- ٢٦ - مكاتبة نصر بن فتوح .
- ٢٧ - السجل الوارد إلى نصر .
- ٢٨ - منشور الشيخ أبي المعالي الطاهر .
- ٢٩ - منشور إلى جماعة أبي تراب .
- ٣٠ - رسالة جبل السماق ، بعث بها بهاء الدين لأتباعه يبشرهم بظهور حمزة ابن علي سنة ٤٢٨ هـ ، وتوليته شئون الموحدين مرة أخرى .
- ٣١ - منشور إلى آل عبد الله وآل ساجان .
- ٣٢ - منشور إلى أبي علي التنوخي .
- ٣٣ - منشور إلى أبي الخير سلامة .
- ٣٤ - منشور الشرط وهي في الرد على بعض المشايخ .
- ٣٥ - مكاتبة إلى الشيوخ الأوابين .
- ٣٦ - منشور في ذكر إقالة سعد .
- ٣٧ - مكاتبة إلى الشيخ أبي المعالي .
- ٣٨ - منشور إلى المحل الأزهر الشريف .
- ٣٩ - منشور نصر بن فتوح .
- ٤٠ - مكاتبة رمز إلى آل أبي تراب .
- ٤١ - الرسالة الواصلة إلى الجبل الأنور .
- ٤٢ - رسالة الشيخ أبي المعالي .
- ٤٣ - رسالة الغيبة ، وهي وداع بهاء الدين للموحدين وتصميمه على الغيبة ،

وبراءته من تعاليم لاحق وسكين وغيرهما من التعاليم الفاسدة .
هذه هي الكتب المقدسة للدروز التي اعتمدت عليها في دراستي لهذه الطائفة
ولا أغالى إذا قلت إن هذه الكتب ثروة تاريخية يجب أن يرجع إليها كل مؤرخ
أو باحث في تاريخنا العربي لأنها تشتمل على معلومات دقيقة لا أشك في صحتها
ولا توجد في كتب التاريخ المعروفة ، ولهذا فإننى أنتهز هذه الفرصة وأوجه نظر
السادة المؤرخين إلى الحقائق التاريخية التي في كتب الدروز المقدسة .

الفصل الثاني

في التوحيد

١ - لاهوت المعبود وناسوته

لعل أهم عقيدة نراها في كتب ورسائل حمزة بن علي أن للحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لا تترك بالحواس ولا بالأوهام ، ولا تعرف بالرأى ولا بالقياس - ومهما حاول الإنسان أن يفكر فيه لمعرفة كنهه فهو يحاول محاولة فاشلة لأن لاهوته ليس له مكان ولكن لا يخلو منه مكان - وليس بظاهر كما أنه ليس بباطن ، ولا يوجد اسم من الأسماء يمكن أن يطلق عليه لأنه لا يدخل تحت الأسماء ، إذ لا يتصف بصفات ، ولا يمكن التعبير عنه بلغة من اللغات ، فهو ليس بشخص وليس بجسم وليس بشبح وليس بصورة ، فلا يقال عنه إنه جوهر أو يقال إنه عرض . . «ولا أقول إنه شيء فيكون محمولا عليه . ولا هو في شيء فيكون محاطاً به ، ولا متعلق بشيء فيكون قد التجأ إليه». فالمعبود على هذا النحو ليس له حد وهو واحد لا يشبه الكائنات في شيء . ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا - لم يلد ولم يولد ، لا تنسب إليه حركة ولا راحة ، وهو البداية والنهاية ، فإذا تحدث عنه متحدث ووصفه بصفة ما فإنما يقول ذلك ضرورة وتقريباً للعقول والأفهام لعجز المتحدث عن الوصول إلى حقيقة المعبود ، فإذا قال مثلاً إنه تعالى باري كل شيء ، ومكوّن كل شيء وأنه معل علة العلل القديم الأزل ، فلا يقال ذلك عن حقيقة المعبود لأن حقيقة المعبود تعجز عن الوصول إليها .

وهكذا جرى ذكر التوحيد في كتب الدروز المقدسة - وحديثهم عن لاهوتية المعبود يتفق تمام الاتفاق مع ما ورد في كتب الدعوة الفاطمية عن الله سبحانه وتعالى ، ففي كتاب راحة العقل مثلاً - وهو كتاب ألفه أحمد حميد الدين بن عبد الله الكرمانى الذى كان يعاصر حمزة بن علي ، وهو صاحب رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم الذى نشرناه في هذا الكتاب - نجد سوراً كاملاً ذا سبعة مشاريع

في التوحيد والتقديس وحديثه في ذلك كله هو حديث كتب الدروز المقدسة ، فقد جعل الكرمانى المشرع الأول من كتابه في بطلان كونه تعالى ليسا ، والمشرع الثانى في بطلان كونه تعالى أيسا ، والمشرع الثالث في أنه تعالى لا ينال بصفة من الصفات وأنه لا يجسم ولا في جسم ولا بعقل ذاته عاقل ، وتحدث في المشرع الرابع عن أنه تعالى لا صورة ولا مادة ، والمشرع الخامس في أنه تعالى لا ضد له ولا مثل ، والمشرع السادس في أنه لا يوجد في اللغات ما يمكن الإعراب عنه بما يليق به ، ثم ختم السور بالمشرع السابع الذى جعله في أن أصدق قول في التوحيد والتسبيح والتمجيد والإثبات ما يكون من قبيل نفي الصفات الموجودة في الموجودات وسلبها عنه تعالى ، هذه هي آراء الدعوة الفاطمية في التوحيد ذكرها الكرمانى في كتابه راحة العقل كما ذكرها غير الكرمانى من علماء دعوة الفواطم ، وهى كلها آراء يقول بها جمهرة المسلمين من جمهور أهل السنة والشيعة الاثنى عشرية والزيدية لم يشذ عنهم إلا جماعة من الحشوية أو المشبهة ، وما هم الموحدون الذين يعرفون خطأ بالدروز يأخذون هذه الآراء ويجعلونها في لاهوت معبودهم الحاكم بأمر الله ، ففى كتبهم المقدسة نرى قولهم في رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد « ومولانا سبحانه معلى علة العلل جل ذكره وعز اسمه ولا معبود سواه ليس له شبه فى الجسمانيين ولا ضد فى الجسمانيين ولا كفؤ فى الروحانيين ولا نظير فى النفسانيين ولا مقام له فى النورانيين » وقولهم « سبحانه مولانا جل ذكره عن إحاطة الأشياء به ، وعز سلطانه عن حكمة الألسن والأوهام عليه ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » أو قولهم « وسلطان لاهوته لا يدرك بالعين ولا يعرف بالكيف والأين » . وورد فى رسالة سبب الأسباب « فقولى توكلت على مولانا جل ذكره أردت به لاهوت مولانا الذى لا يدرك بوهم ولا يدخل فى الخواطر والفهم . ما من العالمين أحد إلا هو معهم وهم لا يبصرون ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وهو جل ذكره أعظم من أن يوصف أو يدرك ، ومن اتكل عليه فهو يكفيه جميع مهماته » .

وهكذا نرى الدروز فى توحيدهم لمعبودهم لا يخرجون عن توحيد المسلمين لحالقهم سبحانه وتعالى ، غير أن الدروز يقولون إن معبودهم يتخذ له من حين لآخر مقامات فاسوتية ، فى رسالة الغيبة .. « أظهر لنا فاسوت صورته تأنيسا للصور ، فحار فيها

الفكر حين فكر ، وعجزت العقول عن إدراك أفعالها واعترفت بالعجز والتقصير في معلومها . . . فبتقدير أحكامه "من" على خلقه بوجود صورته من جنس صورهم ، فخطبتهم الصورة بالمألوف من أسمائهم فأنست العقول إلى ظاهر صورته واستدرجته إلى معرفته بلطف حكيمته امتناناً منه على خلقه « ومن كلام إسماعيل التميمي في كتابه المرسوم بكتاب فيه تقسيم العلوم وإثبات الحق وكشف المكنون يقول « فلا نقول إن هذه الصورة المرئية هي هو فنجعله محصوراً محدوداً جل وعز عن ذلك وتعالى علواً كبيراً . بل نقول إن هو هي استتاراً وتقرباً وتأنيساً بغير حد ولا شبه ولا مثل ، فمثل هذه الصورة كالسراب الذي تعاينه ماء فإذا جتته بحد العيان لم تجده ماء . كذلك هذه الصورة الظاهرة تراها بعين الطبيعة فتظنها صورة كصورتك فإذا دنوت منها بعين العلم لم تجدها صورة ووجدت الله عندها . »

ومعنى هذا كله أن الإمام الفاطمي المعروف « بالحاكم بأمر الله » هو عند الدروز بشر في الأعين المجردة ، ويعيش بين الناس كما يعيش غيره من البشر ، ذلك عند الذين لا يعرفون حقيقته ، أما الدروز الذين عرفوا حقيقته فيذهبون إلى أن الإله المعبود اتخذ لنفسه صورة إنسية سماها الناس « الحاكم بأمر الله » مثل ما يتخذ الإنسان ثيابه فيرتديها ثم يطرحها ويرتدي غيرها ، والثياب ليست من جنس من يرتديها ولا تشبه في شيء ، وكذلك الإله المعبود ليس من جنس الصورة التي اتخذها ولا هي شبيهة به ، وهو يظهر في هذه الصور الناسوتية المتغيرة ، ففي كل عصر ظهر فيه اتخذ صورة ناسوتية تختلف عن الأخرى ، وفي رسالة السيرة المستقيمة حديث طويل عن الأدوار التي أظهر فيها المعبود ناسوته لأن المعبود إن لم يظهر ناسوته من حين لآخر لكان الناس يعبدون العدم ، وقد ظهر المعبود في صور بشرية عشر مرات ، وكان أول مرة ظهر فيها ناسوت المعبود ببلاد الهند في بلد يقال لهاتشاتش وظهر مرة في مدينة أصفهان بفارس في صورة « البا » ولذلك يقول الفرس « بارخدای » يعني الله ، وظهر مرة ثانية في اليمن في صورة شخص يعرف بعلي ، وظهر مرة ثالثة ببلاد المغرب في صورة شخص يعرف بالموثل .

وكان إنساناً ثرياً يمتلك أكثر من ألف جمل ، ولأول مرة يظهر في صورة ملك عندما ظهر في شخصية القائم بأمر الله الفاطمي ، ثم ظهر في شخصية

أبي زكريا القرمطى ثم المنصور بالله ثم المعز لدين الله ثم العزيز بالله ثم الحاكم بأمر الله ، وليس لنا أن نناقش هذه العقيدة إلا أننا نحب أن نسجل أن ظهور أبي زكريا القرمطى كان أسبق من ظهور القائم بأمر الله ، ثم قولهم إن القائم كان بمصر وبنى بها باباً يسمى الرشيدية — كل ذلك بعيد عن الحقيقة التاريخية ، حقيقة حاول القائم بأمر الله فتح مصر أكثر من مرة ولكنه لم يوفق ، فكيف أقام بها وشيد بها باباً ؟ !

وفى رسالة السيرة المستقيمة هذه حديث طويل عن ظهور ناسوت المعبود فى صورة القائم من ذلك أنه سمي بالقائم لأنه أول ما ظهر للعالم بالملك والبشرية ، فقد أظهر نفسه وتسمى باسم عبد من عبيده لأن العبيد عاجزون عن النظر إلى توحيد بارئهم إلا من حيث هم وفى صورهم البشرية فأوجبت الحكمة والعدل أن يتسمى بأسمائهم حتى يدركوا بعض حقائقه ، فأقام للموحدين قسطه أى عدله ، وأقام قواعد توحيده التى هى تمام البناء فى وقتنا هذا بمشيئة ، وفرق كاتب هذه الرسالة بين « القائم » وبين المصطلح الفاطمى والدرزى أيضاً « قائم الزمان » فهو يقول « لا يجوز لأحد من الموحدين أن يقول لمولانا قائم الزمان لأن اسم القائم بالألف واللام ولا يجوز أيضاً أن يقول لعبده القائم بل ينقص منه الألف واللام ، لأن قائم أربعة أحرف وهم حروف الله ، والله هو الداعى ، والله أعنى بالحقيقة هو الإمام ، وإمام أربعة أحرف ، والداعى والإمام والله كلهم عبيد لمولانا القائم العالم الحاكم جل ذكره ، والألف واللام الزائدتان فى اسم مولانا جل ذكره لنفى التشبيه عنه ، لأنهما « لا ؟ ؟ أى لا شبه له فى المخلوقين ولا شريك له فى القدرة والكمال ، وعنده يقال له قائم أى قائم بحدود التوحيد وليس له قدرة ولا كمال ؛ والقائم ستة أحرف وهو معبود : وقائم أربعة أحرف وهو عبد ، وبين العبد والمعبود أيضاً حرفان ، الميم والواو ، والميم فى الحساب أربعون ، والواو ستة دليل على أن الحدود ستة وأربعون وهم حدود الإمامة والتوحيد لمولانا القائم العالم الحاكم لا لعبده الذى هو قائم بهؤلاء الحدود ، وهم العقل والنفس والكلمة والسابق وإثنا عشر حجة والتالى من جملة الاثنى عشر وثلاثون داعياً فذلك ستة وأربعون حداً لمولانا القائم وهو الذى أقام القوة لقائم هؤلاء الحدود أى إمامهم . وبهذا السبب والحكمة تسمى مولانا جل ذكره بالقائم !!

ويعود كاتب الرسالة إلى الحديث عن ظهور المعبود مرة أخرى في صورة الحاكم فيقول :

« والآن فقد دارت الأدوار وبطل ما كان في جميع الأعصار ، ولم يبق من نار الشريعة الشركية غير لهيبها والشرار وسوف ينحمد حشرها ويضمحل العوار ، فقد بدأت ظهور نقطة البيكار (أى ظهور حمزة بن علي) بتوحيد مولانا البار الملك الجبار العزيز الغفار المعز القهار الحاكم الأحده الفرد الصمد المنزه عن الصاحبة والولد ، فلمولانا الحمد والشكر على ظهور نور الأنوار ، وخروج ما كان مدفونا تحت الجدار ، فقد أنعم علينا وعليكم بمباشرة في البشرية وظهوره لكم في الصورة المرئية كما تدركون بعض ناسوته الإنسانية ، ولا أقول ذاته أو نفسه أو صورته أو معناه أو صفاته أو حجابيه أو مقامه أو وجهه إلا ضرورة على قدر استطاعة المستجيبين وما يفهمه المستمعون وتعيه عقولهم ويدخل في خواطرهم » ثم ذكر أن الدليل الأكبر على أن الحاكم بأمر الله هو ناسوت المعبود ، وأنه ليس بابن العزيز بالله وليس بأبي على المعروف بالظاهر ، هذه الأعمال التي قام بها وسلوكه في الحياة فهي كلها ليس بعمل الإنس ، وقد ذكرنا ذلك من قبل ، على أننا نفهم من كتابات بهاء الدين أن الحاكم أظهر لاهوته سنة ٤٠٠ هـ وكان يتظاهر أنه من الخلفاء الفاطميين لستر ألوهيته لقلّة المؤمنين به ، واستمر يظهر لاهوته ثمان سنوات أي حتى سنة ٤٠٧ هـ ثم أخفى لاهوته في السنة التاسعة أي سنة ٤٠٨ هـ لأنها كانت زمان تجارب وأسرار ، ثم عاد فأظهر لاهوته في بداية السنة العاشرة (أي سنة ٤٠٩ هـ) وأثناء السنة الحادية عشرة (أي سنة ٤١٠ هـ) ثم أخفاه في السنة الثانية عشرة (أي سنة ٤١١ هـ) ولا يظهر اللادوت مرة أخرى بعد ذلك إلا يوم الدين ! ! أما لماذا اختار المعبود هذه المقامات التي أظهر فيها ناسوته؟ ولماذا يظهر في سنوات دون سنوات؟ ثم أخفى ناسوته بحيث لا يظهر إلا يوم الدين؟ فكل هذه أسئلة لم يجب عنها حمزة أو بهاء الدين إلا بأن المعبود أخفى نفسه لتغلب الكفر بين الناس ، والكفر هو عدم الاعتراف بالمعبود . ونلاحظ أن حمزة يأتى أن يعترف بحلول اللاهوت في الناسوت أو اتحاد اللاهوت بالناسوت . ولكنه ذهب إلى أن اللاهوت إذا اتخذ صورة ناسوتية فاللاهوت شيء يختلف تمام الاختلاف عن الناسوت ، وأن الصورة التي يراها الناس لا يمكن وصفها بصفة لاهوتية ، ونرى في « رسالة الأسرار ومجالس الرحمة للأولياء والأبرار » أن المعبود

غاضب على كل خلقه ما عدا الموحدين !! ولذلك أغلق باب دعوته فغاب إلى داخل السور الذى يسميه أهل زماننا بسد الإسكندر (سد الصين) لبقى هناك إلى أن يشاء ثم يظهر يوم الدين ، أما متى سيكون يوم الدين ؟ هذا ما تحدث عنه حمزة مراراً بأنه سيكون قريباً ، وبذلك يكون انتهاء هذا « الدور » ، كما صرح حمزة أن الأدوار السابقة سبعون دوراً وبين كل دور وآخر سبعون أسبوعاً وكل أسبوع سبعون سنة ، وكل سنة ألف سنة من السنين التى يعدها البشر ، وفى كل هذه الأدوار ظهر المعبود فى نفس الصور التى ظهر فيها فى هذا الدور الذى نعيش فيه ، وبذلك يكون عدد ظهور المعبود فى كل الأدوار حوالى سبعمئة مرة ، وهنا نتساءل عن علاقة هذه الآراء بمذهب التناسخ المعروف فى الديانة البوذية ، والديانة الهندوكية ، فى الديانة البوذية ظهر بوذا على هيئة حيوانات وطيور وشجر وصور إنسية حوالى ألى مرة ، وفى الديانة الهندوكية ظهر شيفا على صور إنسية عديدة ، كما أن مذهب التناسخ عرف أيضاً عند اليونانيين القدماء والذين درسوا شيئاً من ديانة قدماء اليونان يعرفون الصور المختلفة التى كانت تظهر فيها آلهتهم ، وتحدث الفلاسفة عن التناسخ وقسموه بين نسخ ومسح وفسخ ورسخ ، وانتشرت آراء التناسخ بين كثير من الأمم القديمة فمن الشعوب من اعتنقها ومنهم من رفضها ، حتى ظهرت الفرق الإسلامية فنجد بعض الفرق تعتق آراء التناسخ ، وإذا قرأنا كتب الدروز المقدسة نجد أنها متناقضة فى هذه المسألة ، فكتابات حمزة بن على مؤسس المذهب بها تهكم بمن قال بالتناسخ شأنه فى ذلك شأن دعاة الفاطميين ، مع اعترافه بظهور المعبود فى صور ناسوتية ، وقوله أيضاً بأنه هو نفسه (أى حمزة بن على) ظهر فى صور مختلفة فى الأدوار المختلفة مما يدل على أن مفهوم التناسخ أو الحلول عند الفلاسفة هو غيره عند حمزة ، أما فى كتابات الدعاة الآخرين الذين جاءوا بعد حمزة فمذهب التناسخ واضح أشد الوضوح فنجد مثلاً فى رسالة « الأسرار ومجالس الرحمة للأولياء والأبرار » أن الجسد لا يرجع بعد الموت ولكن النفس تحل فى جسد آخر ، فنفس الموحدة تنتقل إلى موحد ونفس المشرك إلى مشرك ، ولا تتغير الأنفس ولكنها تغير قمصانها أى أشكالها الخارجية (أى الجسد) وفى الرسالة الموسومة « من دون قائم الزمان والهادى إلى طاعة الرحمن » أن عدد سكان العالم غير قابل للزيادة

ولا نقصان منذ بدء الخليقة ، يبقى على هذه الحال إلى الأبد ، فلو زاد البشر سنوياً لضاقت بهم الأرض ولو نقصوا ولو قليلاً لانقطعوا مع مرور الزمن ، فالأنفس إذن غير قابلة للزيادة أو النقصان بل هي على عددها منذ خلقها البارئ وتظهر بظهورات مختلفات الصور على مقدار اكتسابها من خير وشر ، ومن هنا كان اعتقاد الدروز الآن بالتناسخ ، فالذى يموت من البشر تنتقل روحه إلى جسد يولد جديداً ، ويكون عدد الموتى مساوياً لعدد المواليد حتى يظل عدد سكان العالم دون زيادة أو نقصان !!!

٢ - حدود الدين

في العقيدة الفاطمية مبدأ أساسى فى التوحيد والإيمان هو أن توحيد الله لا يكمل إلا بمعرفة مراتب الحدود الروحانية والحدود الجسمانية ، والإيمان بهم وطاعتهم طاعة تامة ، وقد ذكرنا أن الحدود الروحانية عندهم هم العقل (أو القلم أو السابق أو الكاف من قوله تعالى كن) ، ثم النفس (أو اللوح المحفوظ أو التالى أو النون من قوله تعالى كن) ثم الجسد فالفتح والخيال ، وهذه الحدود العلوية ممثولات لحدود الدين الجسمانية الذين هم النطقاء . والأوصياء والآئمة والحجج والدعاة ، فهناك فرق بين المثل والممثل مما جعل الشاعر الفاطمى يقول :

اقصد حمى ممثوله دون المثل ذا إبر النحل وهذا كالعسل
وجاء دعاة مذهب الموحدين وأخذوا آراء الفاطميين فى عبادة الحدود ونفس المصطلحات الفاطمية ، ولكنهم حوروها هذه الآراء الفاطمية حتى تتفق مع مبادئهم وآرائهم ، فخالفوا بذلك آراء الفاطميين مخالفة جوهرية ، فأول ما نراه من ذلك أن الحدود الروحانية هم أنفسهم الحدود الجسمانية ، فلا يوجد عندهم مثل وممثل وإنما تمشياً مع رأيهم فى التوحيد أن اللاهوت أظهر ناسوته كذلك قالوا فى الحدود إن الحدود العلوية ظهرت فى صور الحدود الجسمانية أى أن الحدود الجسمانية هم أنفسهم الحدود العلوية ، فذهبوا إلى أن المعبود أبدع من نوره العقل الكلى وهو الإرادة وهو علة العلل وهو القلم وهو القضاء وهو ألف الابتداء وألف الانتهاء وهو القائم بأمور الحدود وهو حمزة بن على ، ولذلك يقول حمزة فى رسالة سبب الأسباب « إن المولى سبحانه اصطفانى وأبدعنى من نوره الشعشعانى من قبل أن يكون مكان ولا إمكان

ولا إنس ولا جان ، وهو من قبل أن يخلق آدم العاصي وآدم الناس بسبعين دورا ، ما منها عصر إلا وقد دعوت العالمين إلى توحيد مولانا العلى الأعلى وإلى عبادته بصور مختلفة ولغات مختلفة . ويقول فى ميثاق النساء « ويجب على سائر النساء المؤمنات أن لا يشغلن قلوبهن بغير توحيد مولانا جل ذكره والطاعة لحدود دينه الطاهرين الذين نصبهم للطالبيين » ، وناقش حمزة رأى الفاطميين فى حدود الدين فقال فى رسالة كشف الحقائق « اعلّموا معاشر الموحدين رحمكم البار العزيز الجبار بأن جميع المؤمنين والشيوخ المتقدمين تحيروا فى أمر السابق وضده وإتالى ونده فبعضهم قالوا بأن السابق هو الغاية والنهاية والعبادة له وحده دون غيره فى كل عصر وزمان ، وهذا نفس الكفر ، وقالت طائفة منهم إن السابق نور البارى لكنه نور لا تدركه الأوهام والخواطر . وهذا نفس الشرك بأن يكون البارى سبحانه لا يدرك وعنده لا يدرك فأين الفرق بين العبد والمعبود ، وهذا محال ونفس الشرك والضلال ، وبعضهم قالوا إن الكلمة فوق السابق لكنها هى هو وهو هى لا فرق بينهما وهذا ما لا يليق فى المعقول بأن يكون الذكر أنثى والأنثى ذكرا ، ثم إنهم كلهم مجمعون على أن السابق أصل السكونة والبرودة ، والتالى أصل الحركة والحرارة فجعلوا عالم العدم الذى لا يرى السابق ، وعالم الوجود التالى ، وهذا نقض لقولهم إن السابق هو المعبود فكيف يكون ذلك جائزا وقد جعلوا التالى العالم الأكبر . . ونقول بمشيئة البارى سبحانه أنه أظهر من نوره الشعشعانى صورة كاملة صافية وهى الإرادة وهو هوى كل شىء وبه تكوينهم ، وسمى تلك الصورة عقلا ، فكان العقل كاملا بالنور والقوة تاما بالفعل والصورة ، قد اجتمعت فيه الطبائع الخمسة ، وأحصى فيه جميع ما هو كائن إلى ما لا نهاية له ، وجعله إمام الأئمة موجودا فى كل عصر وزمان وهو السابق الحقيقى ، وإنما سى سابقا لأن خلقته وصورته سبقت جميع الحدود إلى توحيد البارى سبحانه ، وهو مدرك محسوس يأكل ويشرب لا كما قالوا إنه لا يدرك بوهم ولا بخاطر ، وكان أول ما أبدعه العلى الأعلى سبحانه سماه علة العلل فكان عملا كاملا بالقوة تاما بالفعل حليا بالسكون قادرا بالحركة أصل نقطة البيكار هوى الطبائع الخمسة لطيف شفاف مدبر لجميع العالمين والعاليين وجعل فخر العالمين وعزهم به فى الدين والدنيا ، وجعل منازلهم على مقدار ما يقتبسون من نوره ويستقون من بحره العذب الزلال .

هكذا أظهر حمزة الحدود في صور تختلف عما عهد أصحاب العقيدة الفاطمية ، فالحدود الروحانية عند الفاطميين عقول محضة وهى ممثلات بينا الحدود الجسدية الذين هم النطقاء والأوصياء والأئمة والدعاة هم بشر وهم مثل للمثولات ، ولكن حمزة أبى إلا أن يجعل الحدود العلوية هم أنفسهم الحدود الجسدية وأن الجميع بشر يراهم الناس ، فحمزة بن على هو نفسه العقل الكلى وهو الإرادة وهو علة العلى وهو القلم وهو القضاء إلى غير ذلك من الألقاب التى منحها لنفسه ، وهذا العقل الكلى ليس هو السابق إنما السابق مرتبة أقل بكثير من مرتبة العقل الكلى فإنه فى المرتبة الرابعة من مراتب الحدود عند حمزة ، كذلك نقول عن التالى وهى النفس الكلية عند الفاطميين فقد جعل حمزة مرتبة التالى فى المرتبة الخامسة ، وجعل الفاطميون « الكلمة » مكونة من السابق والتالى بينا جعل حمزة الكلمة هى المرتبة الثالثة من مراتب الحدود .

واستخدم حمزة حديث العقل الذى رواه الفاطميون وجعل لهذا الحديث تأويلا خاصا يتفق مع ما كان يرمى إليه فقد ورد فى رسالة كشف الحقائق إن المولى بعد أن أبدع العقل « قال مولانا العلى الأعلى لعله الإبداع الذى هو العقل الكلى ” أقبل ” يعنى أقبل على عبادتى وتوحيدي ، فأقبل إليهما بالسمع والطاعة ، فقال له ” أدبر ” أى تول عن جميع من يشرك بى غيرى ويعبد سوى ، فأدبر عنهما ، فقال مولانا العلى الأعلى سبحانه : وعزنى وجلالى وارتفاعى فى أعلى علومى مكانى لادخل أحد جنتى - أى ميثاقى - إلا بك وبمحببتك ولا احترق بنارى - يعنى ظاهر الشرائع الناموسية التى هى الحرارة اليابسة - أحد إلا بتخلفهم عنك وتفاقهم عليك - من أطاعك فقد أطاعنى ، ومن عصاك فقد عصانى ، بك تبلغ المنازل العالية ، وقد جعلتلك الوسيلة إلى رحمتى لجميع عبيدى وأهل طاعتى ، فلما سمع العقل ذلك من البار العلى سبحانه نظر إلى شخصه فرآه بلا نظير يشاكلة ، ولا ضد يقاومه ، ولا ند يعادله ، فأعجبته نفسه وظن أنه لا يحتاج إلى أحد أبداً ولا يقوم له ضد يعانده ، وأن يقوم فى جميع الأدوار وحده بلا ضد ، فأبدع مولانا من طاعته معصية ، ومن نوره ظلمة ، ومن تواضعه استكبارا ومن حلمه جهلا ، فصارت أربع طبائع مذمومة بإزاء الأربع طبائع المحمودة التى هى العقل وطباطعه وهى حرارة العقل وقوة

النور وسكون التواضع وبرودة الحلم وليونة الهيولى الداخلة في الطبائع الخارج منهم ،
فقام بإزاء كل آلة منها دينية آلة ضدية معاندة للعقل عاصية لأمره ونهيه يرى روحه
مثله وشكله ، وإن إبداعه منه بغير واسطة بينهما ، فعلم العقل أنها محنة ابتلاه بها
مبدعه العلى الأعلى حيث رأى روحه بالكمال والقدرة فأقر عند ذلك بالعجز والضعف
وتضرع إلى البارئ في معونته على الضد ، وسأله أن يجعل له معيناً على الضد ، فأبدع
العالى نفس الحدود وجعله ذا مصة ، وجعل له نصف الحركة والفعل ، فصار بمنزلة الأنثى
بينما العقل بمنزلة الذكر ، وجميع الحدود أولادهما ، وانبعثت الكلمة من العقل كما انبعث
السابق من النفس ، وانبعث التالى من السابق ، ومن نور التالى ظهرت الأرض
وما عليها والأفلاك والبروج الاثنا عشر أى بقية حدود الدين .
وهكذا أصبح للدوروز حدود دينية نستطيع ترتيبهم حسب ما ورد في رسالة
معرفة الإمام إلى :

أولاً : العقل الكلى وهو ذومعة علة العلل والأمر قائم الزمان وهو الإرادة وهو
الإمام الأعظم حمزة بن على بن أحمد هادى المستجيبين .

ثانياً : النفس وهو ذو مصة وهو المشيئة . إدريس زمانه وأخنوخ أوانه هرمس
الهرامسة ، الشيخ المجتبى ، الحجة الصفية الرضية وهو أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد
ابن حامد التيمى صهر حمزة بن على .

ثالثاً : الكلمة وهو سفير القدرة الشيخ الرضى فخر الموحدين وبشير المؤمنين
وعماد المستجيبين أبو عبد الله محمد بن وهب القرشى .

رابعاً : الجناح الأيمن (أى السابق) . نظام المستجيبين وعز الموحدين
أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السامرى .

خامساً : الجناح الأيسر (أى التالى) ، الشيخ المقتنى لسان المؤمنين وسند
الموحدين ومعدن العلوم الذى له يقوم بالأفعال الصحيحة المعلومة بينما تكون قوة
حد السابق مستورة مكتومة . بهاء الدين أبو الحسن على بن أحمد السموقى المعروف
بالضيف .

هؤلاء هم الحدود النورانيون النفسيون الروحانيون الجرمانيون الجسمانيون ، والحدود

الأربعة الذين يتلون العقلي الكلى هم الأربعة الحرم ، وهم أيضاً الحجج الأربعة ، وهؤلاء الحدود يظهرون في كل عصر في صور مختلفة وأسماء متباينة فقد يحتجبون ويتخذون الستر تقية عندما تشتد الظلمة أي عدم اعتقاد توحيد الحاكم المعبود فمثلاً عندما ظهر المعبود في صورة أبي زكريا وظهر حمزة بن علي في صورة قارون ، ظهر أبو إسماعيل التميمي النفس الكلية في صورة أبي سعيد الملطي وهكذا ، على أن التالى أى بهاء الدين الضيف له ثلاثة حدود هم :

١ - الحد وهو أيوب بن علي

٢ - الفتح وهو رفاعه بن عبد الوارث

٣ - الخيال وهو محسن بن علي

وهؤلاء الثلاثة يتلقون أوامرهم من بهاء الدين وليس لهم المكانة التى للحدود الحرم ، أو المرتبة التى خصصت لهم فى العقيدة الفاطمية ، تم جعلوا حدود الإمامة والتوحيد سبعين درجة على النحو التالى :

١ - النفس الكلية وله اثنا عشر حجة فى الجزائر وسبعة دعاة للأقاليم .

٢ - الكلمة وله اثنا عشر حجة وسبعة دعاة .

٣ - السابق وله اثنا عشر حجة فقط .

٤ - التالى وله اثنا عشر حجة فقط .

٥ - الداعى المطلق وله مأذون واحد ومكالبان (أو مكاسران) .

وعن هؤلاء الحدود السبعين تفرعت الحدود جميعاً بين دعاة ومأذونين ومكاسرين وجميع الحدود الحرم منهم وغير الحرم كلهم من قبل العقل الكلى يسقط منهم من يريد ويرفع درجة من يشاء ، والحدود السبعون هم الذين ذكروا فى القرآن الكريم على ما أوله حمزة بن علي « ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » أى إن ميثاق قائم الزمان حمزة بن علي الذى هو سلسلة بعضها فى بعض وهم سبعون رجلاً فى دعوة التوحيد فمثل حمزة حدوده بالسلسلة لأن دعوتهم منتظمة بعضها ببعض .

ودرجة المكاسر أو المكالب هى أقل درجة من درجات الدعوة الدرزية كما هو الحال فى الدعوة الفاطمية . تعلوها درجة المأذون ثم الداعى ثم الحجة ، فترتيب الدعاة إذن هو نفس ترتيب دعاة الدعوة الفاطمية ، وقالوا فى تأويل « بسم الله الرحمن الرحيم »

إن «بسم الله» سبعة أحرف دليل على سبعة دعاة أصحاب الأقاليم السبعة ، و «الرحمن الرحيم» اثنا عشر حرفاً دليل على اثني عشر دعاة الجزائر ، وهو نفس تأويل الفاطميين تقريباً .

ولم ينس حمزة أن يخص نفسه بعدة ألقاب وصفات لم يسبغها نبي من الأنبياء على نفسه فهو الآية الكبرى وآية التوحيد وآية الكشف ، والعقل الكلي والإرادة وعلة العلل وذومعة ، وهو والأربعة الحرم والحد والفتح والخيال هم الثمانية الذين يحملون العرش ، ولكن حمزة جمع في نفسه علومهم جميعاً لأن العرش هو علم توحيد المعبود وهو علم لا يحمله في الحقيقة إلا الملك المقرب إلى المعبود الذي يكون معه دائماً أى ذومعة وهو حمزة ، وقد ظهر حمزة في الأدوار الكبرى والأدوار الصغرى بأسماء مختلفة فهو شطنيل في دور آدم ، وفيثاغورس في دور نوح واليعازر في دور عيسى وأنه أى حمزة هو المسيح الحقيقي الحى الأبدى ، وسلمان الفارس في دور محمد وهكذا ، ووصف نفسه في رسالة التحذير والتنبيه بأنه أصل المبدعات وأنه سواط المولى المعبود والعارف بأمره وأنه الطور والكتاب المسطور والبيت المعمور وأنه صاحب البعث والنشور والنافخ في الصور وأنه ناسخ الشرائع ومهلك العالمين والنار الموقدة التى تطلع على الأفتدة ، وأنه هو الذى أملى القرآن على محمد إلى غير ذلك من النعوت التى أسبغها على نفسه وزخرت رسائله بها دون أن يفتن حمزة للتناقض الشديد في أقواله عن نفسه ، وقد التزمت في حديثي عن العقائد الدرزية أن لا أناقشها ولكن هناك مسائل تاريخية وردت في رسائله تحتاج إلى تحقيق فثلاً في حديث حمزة عن النطقاء والأسس وهم من حدود الدين عند الفاطميين ، فالناطق عند الفاطميين هو النبي والأساس هو وصي النبي ومستودع علمه وصاحب التأويل ، وفي دور آدم الحالى ظهر النطقاء والأسس وهم آدم وأساسه شيث ، ثم نوح وأساسه سام ثم إبراهيم وأساسه إسماعيل ، ثم موسى وأساسه هرون ثم عيسى وأساسه شمعون الصفا ثم محمد وأساسه على ابن أبى طالب وهؤلاء جميعاً حدود جسمانية مثلاً للحدود العلوية ، وقد ذكرنا أن للفاطميين تأويلات خاصة لما ورد في القرآن الكريم عن الأنبياء ، أما في رسائل حمزة فنجد حديثاً طريفاً جداً عن النطقاء والأسس وعن تأويل قصص الأنبياء وبعض هذه التأويلات تتفق تمام الاتفاق مع ما ورد في كتب الحقائق

الفاطمية وبعضها الآخر يختلف تمام الاختلاف ، ولا أدري من أين أتى بها حمزة ولذلك نلفت نظر المؤرخين إليها لما فيها من طرافة ، فقد ورد في رسالة السيرة المستقيمة ما ملخصه أنه في ابتداء دورنا الحالى وجد ثلاثة رجال كل واحد منهم اسمه آدم كانوا يعيشون في وقت واحد وفي بلد واحد وهم آدم الصفا ، وآدم العاصي وآدم الناس ، وجميعهم ولدوا من ذكر وأنثى ، أما آدم الصفا فهو آدم الصفا الكلى ذومعة (أى حمزة بن علي) وكان أحد حدود دعوة التوحيد في الدور الذى كان قبل دورنا هذا ، وقد ولد آدم الصفا الكلى في بلدة أدمينية ببلاد الهند وكان اسمه شطنيل واسم أبيه دانييل وكان يحترف الطب ثم خرج شطنيل من بلاده إلى مدينة صرنة باليمن (ومعناها بالعربية كما يقول حمزة المعجزة) فرأى شطنيل أن أهل مدينة صرنة مشركون فدعاهم إلى توحيد المعبود (الحاكم بأمر الله) فقبل فريق منهم دعوته وأبى فريق آخر ، فأمر من أطاعه أن يبينوا عن المشركين ولذلك أطلق عليهم اسم (البن) وقام شطنيل بدعوة التوحيد فأمر المولى الحدود والدعاة بالسجود له أى بطاعته فاستجابوا كلهم إلا الحارث ابن ترماح الذى كان من الدعاة وانتقل من مسقط رأسه أصبهان وسكن صرنة أيضاً ، وكان في الدعوة أقدم من شطنيل وأرسخ قدما في علم الحقيقة ، فلما أبى الحارث طاعة شطنيل أخرج من الدعوة وأسقط من جملة الحدود ، وأصبح شطنيل هو إمام الدعوة في صرنة وأطلق حججه ودعائه ولقب بآدم أى سيد الحدود وإمامهم ، أما الحارث فللقب بإبليس وأصبح ضد شطنيل وإمام المشركين (أى الجن) فكان إذا قابل أحد البن واحدا من إخوانه الموحدين يقول له اهجر إبليس وحزبه ولذلك سميت صرنة بهجر !!! لأن أهلها هجروا إبليس وصحبه ، وكان التجار يأتون إلى صرنة من مدينة الإحساء ، فتصادف أن قدم مع التجار رجل من علماء الإحساء اسمه « صرصر » فناقشه أحد الدعاة وما زال به حتى أخذ عليه العهد وقدمه إلى شطنيل ، الذى أطلقه داعيا في الإحساء وأعمالها ، فخرج صرصر إليها يدعو الناس حتى استجاب له خلق كثير ، ثم أوصاهم صرصر أنهم إذا دخلوا مدينة هجر (أى صرنة) فعليهم أن يعبسوا وجوههم ويقرمطوا أنوفهم إمعاناً في كراهية الجن وزعيمهم الحارث بن ترماح (إبليس) وأن لا يخاطبوا أهل المدينة بشيء من العلم إلا من كان في مجلس شطنيل ، ولذلك أطلق عليهم اسم

القرامطة !!! ومن هنا كان قرامطة البحرين من دعاة توحيد الحاكم !!!
ولقب الحاكم أبو طاهر الجنابي وأبو سعيد وغيرهما من زعماء القرامطة بالسادة لأنهم
قاموا بحركاتهم المعروفة في التاريخ ، ولما عاد القرامطة إلى الاعتراف بالعباسيين
وشنوا الحرب على الفاطميين وقعوا في الغي والكفر وسيعود أهل الأحساء وهجر وبلاد
فارس إلى دعوة توحيد الحاكم !!!

واتخذ شطنيل (آدم الصفا) أول حجة له واسمه أخنوخ من مدينة البصرة ،
كما اتخذ حجة آخر اسمه شرخ من بلد يقال له سرمنا ، وشرخ هذا هو الذي يعرف
بالأساس شيث وآدم الناسي وهو المذكور في القرآن بأنه « زوجة آدم » ثم عين باقي
الحدود لشريعته وكانت هذه الشريعة توحيدية لا تكاليف فيها ، ولذلك جاءت
شريعة توحيد الحاكم وعبادته التي وضعها حمزة توحيدية لا تكاليف فيها تأويلاً
للآية القرآنية « كما بدأنا أول خلق نعيده » . أما آدم الذي ذكر في القرآن الكريم
أنه عصي ربه فهو أخنوخ حجة آدم ، فقد ادعى هو وشرخ منزلة شطنيل بإغواء
الشيطان — والشيطان هو هبل الذي كان معبود العرب في الجاهلية — ثم عفا المولى
عنهما بعد التوبة والاستغفار .

وهنا نقف لتساءل عن اسم شطنيل هذا ، وهل هناك علاقة بين هذا الاسم
واسم « شانطى » الذى يطلقه الصينيون على القديسين المسيحيين ؟ ربما سمع حمزة
بهذه الكلمة الصينية من أحد تجار الصين أو أحد الذين سافروا إلى الصين ،
فاستغلها بعد أن حرفها إلى شطنيل . ثم مدينة صرنة التى معناها بالعربية المعجزة ثم
عرفت بهجر عند القرامطة فلم يذكر أحد من العلماء أن هجر باليمن ثم سبب تسمية
القرامطة بهذا الاسم يدعوننا إلى التفكير ، كل هذه مسائل كان حمزة هو الوحيد
بين الكتاب فى ذكرها على هذا النحو ، ولا شك أنه أدرك بكل شيء لأنه علة
العلل !!!

ثم يتحدث حمزة عن الأديان السماوية فيقول إن نية الناس تغيرت ومالوا إلى
الشرك بعد دور شطنيل فأظهر المولى لهم نوح بن ملك بشريعة جديدة وأقام الحدود
ونصب الدعاة والحجج وكان أساسه سام فلم تنزل شريعته إلى أن ظهر إبراهيم بن آزر
فغير شريعة نوح وأقام إسماعيل أساساً لدعوته ولم تنزل دعوته إلى أن ظهر موسى

ابن عمران فأتى بشريعة تخالف السابقة ونصب هرون أساسه إلى أن ظهر عيسى ابن يوسف النجار (هكذا يقول حمزة عن المسيح عليه السلام) وأظهر دعوته ونصب شمعون الصفا أساسه وبعث حوارييه أى (حججه ودعاته) إلى عبادة العدم ! ! وتوحيد من لا يعرف ! ! ولكن الناس لم يفهموا كلامه ولم تنزل شريعته قائمة إلى أن ظهر محمد بن عبد الله ونسخ جميع الشرائع كافة بشريعته ونصب أساسه على ابن عبد مناف (هكذا) واتخذ اثني عشر حجة مثل غيره من النطقاء السابقين منهم أبوبكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وعبيد الله ابن الجراح ومعاوية بن أبي سفيان ، ولم تنزل شريعة محمد بن عبد الله تتناسخ في أيدي أئمته إلى أن انقضى دوره ! ! وظهر ناطق غيره وهو محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق الذى ختم الشرائع وأتمها . وختم دور محمد بن إسماعيل بعبيد الله المهدي إذ جاء المعبود نفسه في صورة ناسوتية هي صورة القائم بأمر الله ، وأصحاب الأديان هؤلاء كانوا يسهلون سبل توحيد المعبود ، وكان حمزة أو شطنيل أو آدم الضفا يظهر بين الناس في كل دور من تلك الأدوار الدينية وكذلك الأربعة الحرم ، ولم يعرفهم الناس لأن المولى حجبه عن أعين الناس لمخالفتهم إياه ، فمثلا كان حمزة في صورة أنى طالب عم الرسول ، ثم في صورة سلمان الفارسي وإلى آخره .

على أننا نلاحظ أن تأثير العقيدة المسيحية واضحة في كتابات بهاء الدين بينما نجد أثر العقيدة الإسلامية أشد وضوحاً في كتابات حمزة ، ففي رسالة القسطنطينية التي بعث بها بهاء الدين إلى قسطنطين إمبراطور بيزنطة استشهد بهاء الدين بما ورد في الإصحاح الثاني من إنجيل يوحنا (العدد الخامس) ، (قالت أمه للخدام مهما قال لكم فافعلوه) وما ورد في نفس الإصحاح (من عدد ١٩ إلى ٢٢) . . . وقال لهم يسوع : انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه فقال اليهود في ست وأربعين سنة بنى هذا الهيكل أفأنت في ثلاثة أيام تقيمه ، وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده فلما قام من الأموات تذكر تلاميذه أنه قال هذا « وفسر بهاء الدين ما ورد في الإصحاح بأن الثلاثة أيام هي ثلاث مرات الأولى ظهور المسيح لتهيئة الناس لتعليم مذهب التوحيد والثانية مجيء الفارقليط وهو روح النفس والثالثة زمان ظهور المهدي

الذى يعلم الناس تفسير الكتب الدينية المختلفة تفسيراً رمزياً ليتدرجوا إلى علم التوحيد وبعد هذه الأيام الثلاثة يأتى اليوم الذى يظهر فيه المسيح أى حمزة ، وقال بهاء الدين أن اليوم الرابع هو تمام اليوم الأول كما يتضح من الإصحاح السابع من إنجيل يوحنا عندما طلب إخوة المسيح إليه إظهار أعماله فقال لهم إن ساعتى لم تأت بعد كما استشهد بهاء الدين أيضاً بقول المسيح إنه أتى من السماء ليتم إرادة الذى بعثه . . إلخ على أن المسيح هو حمزة . وفى « الرسالة المسيحية وأم القلائد النسكية » وهى من رسائل بهاء الدين - أن كل ما ورد فى الإنجيل من الاضطهاد والتعذيب وغير ذلك إنما يراد باضطهاد حمزة لأعداء مذهبه وأن حمزة هو الذى علم الإنجيل والإنجيل مبنى على حكمة إلهية رمزية معناها الدين التوحيدي ثم نراه يذهب إلى أن جميع الألقاب التى لقب بها المسيح فى الإنجيل فهى ألقاب حمزة فهو روح القدس وروح الحق الذى ظهر لغفران الخطايا وابن الله وأنه هو الذى أرسل متى مرقس ولوقا ويوحنا لواحقه لتعليم الناس الإنجيل وأنه الغريب لأنه غريب عن الديار التى ظهر فيها ولأنه غريب الأعمال والأفعال ، وأنه المسيح الحقيقى أما المسيح الذى صلبه اليهود فهو ابن يوسف النجار الذى كان مخالفاً للمسيح الحقيقى وهكذا نرى أثر المسيحية فى كتابات بهاء الدين وهو الشئ الذى لا نجده فى كتابات حمزة أو التيمى ، ومن الغريب أن بهاء الدين لا يعترف بالقديسين المسيحيين ، بالرغم من أنه خاطبهم بقوله « السلام على أهل التوحيد والدين والمقتفين الآثار المطهرة ، الحواريين العارفين بمذهب الأمناء » .

ومما تقدم نرى أن آراء علماء دعوة الدروز عن النطقاء والأسس تتفق اتفاقاً يكاد يكون تاماً مع ما قاله علماء الدعوة الفاطمية لولا بعض اختلافات فلم يشأ دعاة الفاطميين أن يصرحوا بما صرح به دعاة مذهب تأليه الحكم بالرغم من أن دعاة الفاطميين كانوا على علم غزير حقاً ، ومقدرة قائمة فى إلباس آرائهم ثوب الحقيقة ، بخلاف دعاة مذهب الدروز الذين كانوا يحتالون بشتى الطرق لإثبات آرائهم والدفاع عنها ولو ناقض الواحد منهم نفسه أو غالط فى التاريخ من ذلك الحديث عن دور محمد بن إسماعيل فقد ورد فى كتب الدروز ما نصه « وكان الثلاثة الذين رابعهم سعيد بن أحمد المهدي فى دور محمد بن إسماعيل وثلاثة خلفاء من قبلهم فصاروا سبعة تمام دور محمد بن إسماعيل وكان آخرهم المهدي » هنا يتحدث حمزة

عن أئمة الفاطميين في دور الستر ، وهو الحديث الذي تحاشاه علماء الدعوة الفاطمية . وإذا تحدث عنه أحدهم فهو يتخبط في حديثه بحيث قل أن نجد اتفاقاً بين علماء هذه الدعوة حول هذا الموضوع مع أن أكثرهم يتفقون على أن أئمة دور الستر هم عبد الله بن محمد بن إسماعيل وأحمد بن عبد الله فالحسين بن أحمد ثم ظهر عبيد الله المهدي ، فمن هم إذن الخلفاء الثلاثة الذين كانوا قبل هؤلاء الأربعة ؟ وكيف نعدم في دور محمد بن إسماعيل ؟ هذا ما لم أستطع فهمه ولو كان باب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً في العقيدة الدرزية لوجد من علماءهم من يصلحون هذه الأخطاء التاريخية ، وينجّل إلى أن حمزة أراد أن يتم أسبوع دور محمد بن إسماعيل ولكنه لم يوفق في حديثه .

شريعة الدروز

كان دعاة مذهب الدروز يعيشون في وسط إسلامي خالص يحافظ على أداء الفرائض الدينية الإسلامية محافظة تامة ، حتى إن الدعوة الفاطمية نفسها التي أخذ منها دعاة الدروز عقيدتهم ، كانت دعوة تقوم على العلم والعمل أي على التأويل الباطن وعلى العبادة الظاهرة التي تدعو إلى إقامة الفرائض الدينية الإسلامية ، وكان الفاطميون منذ دخلوا مصر يكثرّون من إنشاء المساجد ويذهبون إلى الجوامع للصلاة ، ويهتمون اهتماماً كبيراً بالظهور بهذا المظهر الديني حتى يألفوا قلوب الناس ويتحجبوا إليهم ، والحاكم نفسه أتم بناء هذا الجامع الكبير الذي بدأه العزيز ، فكان جامع الحاكم من أكبر وأفخم جوامع الفاطميين وآثار هذا الجامع لا تزال ماثلة في القاهرة المعزية ، بمأذنته وبالمبخرتين الفخمتين على عضادتي بابه ، كل هذا يدل على أن الفاطميين كانوا يقومون بالعبادة العملية بجانب العبادة العلمية ، وكان القرآن الكريم يرتل في كل مكان ، وكان للحضرة قراء دائمون يتناوبون تلاوة القرآن الكريم في كل ساعات الليل والنهار ، كان دعاة الدروز قبل بدء ظهور دعوتهم وبعد ظهورها محاطين بهذا الجو الديني الإسلامي فكان لابد لهم أن يتأثروا بذلك كله في وضع مذهبهم الجديد ، وأول ما بدأه الدعاة بعد إعلان توحيد الحاكم هو نقض الشريعة القائمة المنتشرة حولهم والتي كان يدين بها أكثر أفراد المجتمع إذ ذاك حتى

يتسنى لهم أن يأتوا بشريعة جديدة تخالف ما كان عليه الناس ، ونجد في رسالة « النقض الخفي » رأيهم في نقض الشريعة الإسلامية فبدأوا بالقول بتلاشي الظاهر وإقامة الباطن المحض أى بإبطال كل فرائض الدين الظاهرة والعبادة العملية ، وإلغاء كل أركان العبادة ، وأن يقوم الباطن فقط ، على أن التأويل الباطن الذى قالوا به هو نفس ما قاله علماء الدعوة الفاطمية في التأويل الباطن للفرائض ، كما اتخذوا من أفعال الحاكم بأمر الله وتصرفاته ما يؤيد رأيهم في نقض الفرائض — وقد ذكرنا ذلك من قبل — ولكن دعاة المذهب الجديد أرادوا أن يطعنوا التأويل الباطن الفاطمي فقالوا مثلاً إن « الفحشاء والمنكر » إلتباع الشريعتين الشريعة الظاهرة والشريعة الباطنة ، وأن التأويل الباطن للزكاة مثلاً عند الفاطميين هي ولاية على بن أبي طالب ولأئمة من ذريته والتبرؤ من الأضداد فقال دعاة المذهب الجديد إن الحاكم منع سب أضداد الأئمة فأظهر بذلك بطلان الزكاة الباطنية ، وأن الزكاة الحقيقية هي توحيد المولى وترك ما كان عليه الناس قديماً . وهكذا حاولوا نقض أركان الدين باتباع تأويلات خاصة ولكنها أقرب إلى التأويلات الباطنية الفاطمية ، واتخذوا لهم فرائض أطلقوا عليها الفرائض التوحيدية وهي معرفة الباري وتتربيه عن جميع الصفات والأسماء ثم معرفة الإمام قائم الزمان وهو حمزة بن على بن أحمد وتمييزه عن سائر الحدود ووجوب طاعته طاعة تامة ثم معرفة الحدود بأسمائهم وألقابهم ومراتبهم ووجوب طاعتهم ، فإذا اعترف الإنسان بهذه الفرائض التوحيدية الثلاث أصبح موحداً ، وليس عليه أن يقوم بتكاليف أى فريضة من الفرائض ، ولكن على الموحد أن يعترف أيضاً ببعض الواجبات التى فرضها المذهب ، مثل معرفة المقامات الربانية وهي التى ظهر فيها المعبود فى صور ناسوتية ، ومعرفة الصورة التى ظهر فيها كل مرة ومعرفة اسم الحاكم ، والإقرار بالنطق أى بالمجالس والسجلات التى تحتويها الكتب المقدسة ثم معرفة الفعل أى المعجزات التى قام بها المعبود فى ناسوته .

وقالوا إن المولى قد أسقط عن الموحدين سبع دعائم تكليفية ناموسية وفرض عليهم سبع خصال توحيدية وهي :

أولاً : أولها وأعظمها : سلق اللسان : ونلاحظ دائماً أن الدروز لا ينطقون كلمة الصدق بالصاد ، إنما ينطقون ويكتبون الكلمة ومشتقاتها بالسين ، والسبب

في ذلك هو حساب الجُمَّل ، وما يتفق في ذلك مع العقيدة التي نادوا بها ، فالسين تساوي ستين ، الدال تساوي أربعة ، القاف مائة فيكون المجموع مائة وأربعة وستين هم عدد حدود الموحدين ذلك أن حد الإمامة تسعة وتسعون (أى الأسماء الحسنى) أى أن للإمام تسعة وتسعين داعياً ، ولكل من الجناح الأيمن والجناح الأيسر ثلاثون داعياً مجموعهم ستون داعياً ، يضاف إلى ذلك كله أربعة حدود علوية هم ذو مصة والكلمة والجناح الأيمن والجناح الأيسر فالمجموع الكلى مائة وثلاثة وستون حدّاً دينياً يبقى بعد ذلك حد هو الدليل على التوحيد وهو حمزة بن علي بن أحمد . ومن هنا نطقوا كلمة صدق ومشتقاتها وكتبوها بالسين حتى تتفق مع حروف الجمل على هذا النحو .

ثانياً : حفظ الإخوان

ثالثاً : ترك ما كان عليه الموحدون وما اعتقدوه من عبادة العدم والبهتان .

رابعاً : البراءة من الأبالسة والطغيان ، ويقصد بذلك البراءة من الأنبياء السابقين ومن كل الأديان والشرائع .

خامساً : التوحيد للمولى في كل عصر وزمان ودهر وأوان .

سادساً : الرضا بفعله كيفما كان .

سابعاً : التسليم لأمره في السر والحدثان وأنه يجب أن يعلم كل واحد أن المولى يراه حيث لا يرى هذه هي الخصال التوحيدية التي يجب على الموحدين اعتقادها والعمل بها ، والناظر إلى هذه الخصال نجدها كلها في كتاب « الهمة في آداب أتباع الأئمة » للقاضي النعمان بن محمد بن حيون المغربي المتوفى سنة ٣٦٣ هـ وقد نشرنا هذا الكتاب من قبل في سلسلة مخطوطات الفاطميين فليرجع إليه كل باحث يريد معرفة علاقة آراء الدروز بالعقيدة الفاطمية مع ملاحظة أن القاضي النعمان لم يذكر شيئاً بالطبع عن توحيد الحاكم في كل عصر وزمان إنما قال بطاعة إمام العصر وقائم الزمان . .

ومعنى هذا أن شريعة الدروز تتلخص في إسقاط الفرائض الدينية التكليفية وعدم إقامة الفرائض الدينية الإسلامية ، والاعتراف بالخصال التوحيدية ، فمن اعترف

بها فهو من الموحدين ، وهم في ذلك يتفقون إلى حد كبير مع المبادئ التي نادى بها الحسن الثاني بن محمد زعيم الإسماعيلية الشرقية في آلموت سنة ٥٥٨ هـ الذي طلب من أتباعه طرح جميع التكاليف الدينية ولا يزال الإسماعيلية الأغاخانية على هذه العقيدة إلى اليوم ، غير أن الدروز يصومون في أيام خاصة وهي التسعة أيام الأولى من شهر ذي الحجة ، وصيامهم هو نفس التقليد الإسلامي في الصيام أي الامتناع عن الأكل والشرب والقيام بأي عمل يبطل صيام المسلم ، ويحتفلون بعيد الأضحى الذي هو عيدهم الأكبر ، ومنهم المتعبدون الذين يجاهدون النفس فتراهم يصومون عدة أشهر متوالية على نحو ما يقوم به بعض « السادو » في الهند ، فالسادو يجاهد نفسه جهاداً عنيفاً بأن يأتي من الأعمال ما فيه تعذيب الجسد في سبيل تطهير النفس ونقاؤها ، وقد شاهدت في معبد بمدينة بومباي بالهند سادو يقف على رجله اليسرى وقد رفع رجله اليمنى وقيل لي إنه ظل هكذا مدة أربعة أشهر دون أن يستريح فهو ينام ويأكل وهو على هذه المثابة . ومن الدروز من أقلع عن الزواج إمعاناً في تصوفه ومنهم من لا يأكل لحماً طوال حياته على نحو ما يفعله براهمة الهند ، بل هؤلاء لا يذوقون شيئاً من بيت أحد من غير العقال مثل البراهمة تماماً .

وفي كتب الدروز المقدسة وصايا أخرى غير الوصايا السبع التي ذكرناها من قبل ، وقد فرض على الموحدين القيام بها أسوة بالوصايا السبع ، ففي ميثاق النساء مثلاً يقول حمزة إنه ينبغي على الرجال الموحدين وعلى النساء الموحيدات أن يكونوا منزهين عن كل عيب ودنس وإثم ، وأن يبتعدوا عن مخالطة غير المؤمنين ، وأن تكون طهارة أفعالهم وأقوالهم معلومة للجميع ، وأن يأمرؤا بالمعروف ويعملوا الخير ، وفي رسالة الأسرار ، يحذروهم بهاء الدين من أن يكون بينهم قتلة أو لصوص أو فاسقون أو ظالمون ، وفي رسالة شرط الإمام صاحب الكشف أنه من الفروض الدينية أنه عندما يتزوج موحداً موحدة يجب عليه أن يجعلها مساوية له في كل شيء وأن يقسم بينه وبينها كل دخله ، وإذا اضطر إلى الطلاق فينبغي أن يعرف من منهما المقصر في معاملة الآخر ، فإذا كانت الزوجة هي التي ترغب في الطلاق فيكون لزوجها نصف ما تملكه بعد أن يشهد عدول أنها هي المقصرة في حق زوجها وأنه كان يعاملها معاملة حسنة ، وإذا شهد الشهود بأنه كان يهينها ولا يعاملها بالمساواة فلها

الحق أن تأخذ معها كل ما هو لها دون أن يسمح له بأن يأخذ منها شيئاً . وإذا شاء الرجل أن يطلق زوجته من تلقاء نفسه دون أن تكون قد أذنت يكون لها نصف ما يملكه من بيته وأثاثه وأمواله ودوابه . وهكذا نجد في الكتب المقدسة أشباه هذه التشريعات التي وضعها حمزة والحدود بعده ، على أن أكثر هذه الوصايا التي فرضت على الموحدين إنما أخذت من القرآن الكريم ، وأكثر الاستشهادات التي أتت بها حمزة إنما هي آيات من القرآن الكريم ، بل نقرأ في رسالة الغاية والنصيحة قول حمزة « كان يجب عليكم أن تنظروا ما جاء في القرآن وتدبروا معاني حقائقه » ، وفي رسالة السيرة المستقيمة يقول حمزة ، وقد بين القرآن تكذيبهم بقوله « ليس كمثل شيء » ، فتأويل آيات القرآن الكريم أول شيء يلاحظه قارئ كتب الدروز المقدسة .

يوم القيامة والثواب والعقاب

غاب المعبود (الحاكم بأمر الله) سنة ٤١١ هـ ، ولن يعود إلى الظهور في الصور الناسوتية إلا يوم القيامة ، وهو اليوم الذي يظهر فيه مذهب عقيدة التوحيد على كل المذاهب والأديان ، ويضطر المخالفون لعقيدة التوحيد أن يتحولوا عن دينهم بحد السيف ، أما متى سيكون هذا اليوم ؟ فرسائل الدروز تقول إن ذلك أمر مجهول ولكن سيكون ذلك في شهر جمادى أو في شهر رجب ، وعلامة قرب هذا اليوم هو عندما يرى الملوك يملكون حسب مآربهم وأهوائهم الشخصية ولا يعدلون بين الرعية . ويتسلط المسيحيون واليهود على البلاد ، ويستسلم الناس إلى الآثام والفساد والآراء الفاسدة ، ويتملك شخص من ذرية الإمامة يعمل ضد شعبه وأمتة ودينه ويضع نفسه تحت سلطان المخادعين ، ثم ظهور ملك آخر في مصر يحارب المصريين ويحاربونه ويظهر خداعه وغشه ولذلك سمي المخادع ألد غشاش زمان القيامة وعلامة خسارته هيجان عظيم في أرض الأقباط وزلزلة وحريق يهدمان أبنية في القسطنطينية والقاهرة ، ويظهر مخادع آخر في نفس هذه المدينة يحاول التملك عليها ولكنه يقتل ويأتي المسيح الدجال في صورة رومي ويجمع الروم حول رايته ويخرب حلب بجيوشه ثم يخرج منها بعد ويل وحرب ، ويأتي روم يحاولون إهلاك أهالي الصعيد والريف ، ولكن أهالي الصعيد ينتصرون عليهم بعد ذلك ، وتهدم أبنية العبادة للطوائف المختلفة

ويضعف الإيمان ويقع اضطهاد عنيف على الموحدين ، ويتملك اليهود بيت المقدس ويتقمون بقيادة ألد الكذاب من سكان القدس وعكا ، ثم يظهر المسيح بن يوسف في أرض مصر ويهزم الروم ويظهر البلاد من المخادع ألد غشاش يوم القيامة ، ويبني لبلاده مجدا عظيما في الداخل والخارج ويلتف حوله الناس جميعا ثم يطرد اليهود من بيت المقدس بعد حروب قاسية يعود بعدها اليهود أذلة إلى التيه ، هذه كلها من علامات الساعة في كتب الدروز المقدسة .

ثم يظهر الحاكم بناسوته في شهر جمادى أو شهر رجب من شهور الهجرة واختلفت الرسائل المقدسة في مكان ظهور المعبود يوم القيامة فبعضها وخاصة كتابات حمزة تذهب إلى أن ظهوره سيكون في مصر ، أما رسالة الأسرار ففيها تصريح بأن المعبود سيكون في بلاد الصين يخرج من سد الصين العظيم وحوله شعب يأجوج ومأجوج وهم قوم يؤمنون بمذهب التوحيد ، ويدخلون مكة ويتجلى المعبود لهم في صورة الحاكم بأمر الله من الركن اليماني وفي يده السيف فيقدمه إلى حمزة الذي يهدد بسيف الحاكم مخالفي العقيدة ويعطى الحكم للموحدين ، وينقسم الناس يوم البعث إلى أربع فرق ، فرقة ناجية هي فرقة الموحدين وسيكون لهم السلطان ومنهم الوزراء والحكام ، وثلاث فرق هالكة هم أهل الظاهر وأهل الباطن والمتردون ، وأصحاب هذه الفرق الثلاث سيكونون عبيدا للموحدين .

أما العذاب والجزاء فيفهم من كتابات حمزة أن العذاب الواقع بالإنسان نقلته من درجة عالية إلى درجة دونها من درجات الدين ، وقلة معيشته وعمى قلبه في دينه وديناه ، ويستمر تنقله من جسد إلى جسد بتناسخ روحه في الأجساد وهو كلما تنتقل روحه من جسد إلى جسد تقل منزلته الدينية ، أما الجزاء في الثواب ما دام يتكرر في الأجساد فهو زيادة درجته في العلوم الدينية وارتفاعه من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ إلى درجة حد « المكاسر » وهو حد من حدود الدين فيزيد في ماله وينبسط في الدين من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ إلى أرقى حد من حدود الدين . هكذا تذهب العقيدة الدرزية في اليوم الآخر وفي الثواب والعقاب . والذي نلاحظه في الثواب والعقاب أن قول حمزة وبهاء الدين هو نفس ما جاء في كتب تأويل العقيدة الفاطمية .

خاتمة

رأينا فيما تقدم كيف أن هؤلاء الذين يعتقدون عقيدة الموحدين الذين يعرفون خطأ في العالم بالدروز ، هم من قبائل عربية معروف نسبها على مدى التاريخ ، وأنهم دائماً كانوا ولا يزالون يداً واحدة مع إخوانهم العرب في الحركات السياسية ، فكانوا يعملون مع العرب ضد الصليبيين ، وضد التتار ، ثم ضد المستعمرين الأوربيين من فرنسيين وإنجليز ، وتاريخهم شاهد على بطولتهم الحربية في كل المواقع التي خاضوها جنباً إلى جنب مع إخوانهم العرب ، وهم يعتزون بعروبيتهم حتى إنهم غيروا اسم « جبل الدروز » إلى اسم « جبل العرب » إمعاناً في عروبيتهم ، حتى إن المستعمرين الفرنسيين حينما حاولوا التفريق بين الدروز والمسلمين قال أحد زعماء الدروز وهو عادل النكدى في خطبة له « إن الدروز مسلمون كانوا ولا يزالون وأنهم لو لم يكونوا كذلك لصيرتهم عربيتهم مسلمين » .

أما عن علاقة الدروز بالمسلمين فيكفي أن ننقل هنا ما نشره أمير البيان العربي الأمير شكيب أرسلان — وكان من أمراء الدروز — في جريدة الشورى بتاريخ ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤ هـ « الدروز فرقة من الفرق الإسلامية أصلهم من الشيعة الإسماعيلية الفاطمية ، والشيعة الإسماعيلية الفاطمية أصلها من الشيعة السبعية القائلين بالأئمة السبعة ، وهؤلاء من جملة المسلمين كما لا يخفى ، فإذا قيل إن الدروز هم من الفرق الباطنية التي لا يحكم لها بالإسلام فالجواب إن الدروز يقولون إنهم مسلمون و يقيمون جميع شعائر المسلمين ويتواصلون بمرافقة الإسلام والمسلمين في السراء والضراء ويقولون إن من خرج عن ذلك منهم فليس بمسلم ، ولهذا أصبح من الصعب على المسلم الذي فهم الإسلام كما فهمه السلف الصالح والذي سمع حديث (فلا شققت عن قلبه) أن يخرج الدروز من الإسلام ، وفي الشرع المحمدى قاعدة : نحن لنا الظاهر والله يتولى السرائر . وقد قال الله تعالى : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا » وهؤلاء يلقون السلام فقط بل يلقون السلام ويقولون إنهم مسلمون ، ويحفظون القرآن ، ويلقن ملقنهم الميت « إذا

جاءك منكرو ونكير وسألاك ما دينك ومن نبيك وما كتابك ومن إخوانك وما قبلتك ،
 فقل لهما الإسلام ديني ومحمد نبي والقرآن كتابي والكعبة قبلي والمسلمون إخواني ،
 وليس من شعائر الإسلام شيء لا يقيمه أولا يوجب إقامته الدروز ، وإذا قيل إنه
 مع كل هذه المظاهر تحتوى عقيدتهم الباطنية التي تعرفها طبقة العقال على ما يصادم
 أركان عقيدة السنة والجماعة ولا يتفق معها في شيء فالحواب قد وجد بين المسلمين
 أئمة كبار يترضى عنهم عند ذكرهم ولم قباب على أضرحتهم التي تزار وتعلق فيها
 القناديل وكانوا يقولون بوحدة الوجود ! فهل وحدة الوجود مما يطابق القرآن والسنة ،
 كلا . فهل أخرج المسلمون هؤلاء الأئمة من الإسلام ؟ أما تجسد الإله فليس من
 عقيدة الدروز كما يتهمة بعضهم ، والتجسد شيء ورؤية الإله شيء آخر . إلخ .
 فالمرحوم شكيب أرسلان يثبت أن فرقة الدروز فرقة إسلامية في كل شيء
 وهي أشبه شيء بالفرق الصوفية التي لها تعاليمها الخاصة ولها تأويلاتها الخاصة ،
 ويخيل إلى أنه بالرغم من إغلاق باب الاجتهاد ، وباب الدعوة بحيث لا يقبل في
 المذهب الدرزي أحد بعد غيبة المقتني بهاء الدين ، فإن العقيدة التي وضعها حمزة
 وبهاء قد أصابها كثير من التعديل بفضل بعض الشراح أمثال الأمير عبد الله التنوخي
 الملقب بالسيد المتوفى سنة ٨٨٤ هـ المدفون بمدينة عبية ، وكان من الذين عملوا إلى
 العودة بالدروز إلى مذهب أهل الجماعة والسنة ، وأمثال الأمير شكيب أرسلان
 وعارف بك النكدى وكثير من أمثال طائفة الدروز التي لا يقبلون بغير الإسلام
 بديلا ويقولون إن الدروز فرقة إسلامية قبل كل شيء .

وبعد أرجو أن أكون قد وفقت في تقريب تاريخ وعقائد طائفة الدروز إلى

جمهور القراء والسلام . . .

المراجع

من الطبيعي أن تكون كتب الدروز المقدسة التي ذكرتها من قبل هي المصادر الأولى لبحثي هذا ، وتليها في الأهمية كتب الإسماعيلية الفاطميين وقد سبق أن ذكرتها في كتابي « طائفة الإسماعيلية » ، ولذلك لن أذكر هنا هذه الكتب مرة ثانية ، كذلك أقول عن أمهات الكتب العربية التي يرجع إليها كل باحث في تاريخنا العربي أو أدبنا العربي أمثال تاريخ الطبري ، وتاريخ ابن الأثير ، وتراجم ابن خلكان ، وكتب المكتبة الجغرافية ، وكتب الموسوعات مثل صبح الأعشى ونهاية الأرب للنويري ومسالك الإبصار لابن فضل الله العمرى وغير ذلك من الكتب العامة التي لا يستغنى عنها الباحث فلن أذكرها ، وسأكتفى بذكر بعض الكتب التي لا يتداولها الباحثون كثيرا .

البلاذرى : فتوح البلدان
جودت باشا : تاريخ جودت (باللغة التركية)
ابن حجر العسقلانى : رفع الإصر عن قضاة مصر (مخطوط بدار الكتب المصرية)
الذهبي : تاريخ الإسلام (مخطوط بدار الكتب المصرية)
سعيد بن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق
شكيب أرسلان : روض الشقيق فى الجزل الرقيق (وهو ديوان شعر الأمير نسيب أرسلان وجاء فى آخر الديوان سجل نسب آل أرسلان)

شمس الدين سامى : قاموس الأعلام
صالح بن يحيى التنوخى : تاريخ بيروت
طنبوس الشدياق : تاريخ الأعيان
عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله المفترى عليه
على ظريف الأعظمى : تاريخ ملوك الحيرة
ابن القلانيس : ذيل تاريخ دمشق

- محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية
 محمد كرد علي : خطط الشام
 مسكويه : تجارب الأمم
 المقرئزي : تعاظ الحنفا
 : المواعظ والاعتبار
 : المقفى الكبير (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس)
 ملحم إبراهيم البستاني : كوثر النفوس
 يحيى الأنطاكى : تاريخ يحيى الأنطاكى

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٧	الباب الأول : تاريخ الدروز
٧	الفصل الأول : لمحة عن أصل الدروز
١٦	الجانبلاطية
١٩	اليزبكية
٢٠	النكدية
٢٢	بنو عبد الملك - بنو حصن الدين
٢٣	بنو علم الدين
٢٤	بنو عماد
٢٥	آل أرسلان
٣١	الفصل الثاني : طبقات المجتمع عند الدروز
٣٤	الباب الثاني : البوذية الحاكم
٣٤	الفصل الأول : شخصية الحاكم بأمر الله
٥٣	الحاكم عند دعاة المذهب الفاطمي
٥٥	رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم
٧٥	الفصل الثاني : ظهور الدعوة الجديدة
٨٦	الباب الثالث : عقيدة الدروز
٨٦	الفصل الأول : عقيدة الفاطميين أساس عقيدة الدروز
٩٢	كتب الدروز المقدسة
١٠٤	الفصل الثاني : في التوحيد
١٠٤	١ - لاهوت المعبود وناسوته
١١٠	٢ - حدود الدين
١٢٠	شريعة الدروز
١٢٤	يوم القيامة والثواب والعقاب
١٢٦	خاتمة
١٢٨	المراجع

طائفة الدروز

تاريخها وعقائدها

يجرى ذكر الدروز على ألسنة الناس ويذهبون في هذه الطائفة مذاهب شتى . وقل أن نجد بينهم من يحيط بتاريخ الدروز وحقيقة عقائدهم . وقد أقبل العلماء الغربيون والعرب على دراسة هذه العقائد على أثر تسرب بعض النسخ من كتبهم المقدسة إلى مكتبات الدول المختلفة ولكنهم لم يصادفوا في أبحاثهم نجاحاً كبيراً . وهذا الكتاب يشرح تاريخ هذه الطائفة وعقائدها وقد عرض فيه المؤلف الآراء المذهبية كما وردت في الكتب المقدسة في إيجاز شديد دون مناقشتها مع الإمام بالأصل الذي استقى منه دعاة الدروز هذه العقائد .

مكتبة الدراسات التاريخية

● صدر منها :

مصر والسودان	للدكتور محمد فؤاد شكرى
تاريخ الطباعة في الشرق العربي	للدكتور خليل صابات
الدولة العربية الكبرى	لمحمود كامل الحامى
الهيلينية في مصر من الإسكندر إلى الفتح العربي	تأليف سير هارولد إدريس بل وترجمة زكى على
تاريخ العراق في ظل الحكم الأموى	للدكتور على حسنى الخربوطلى
سيف الدولة وعصر الحمدانيين	للاستاذ سامى الكيالى
العرب في صقلية	للدكتور إحسان عباس
الفن الحربى في صدر الإسلام	للاستاذ عبد الرؤوف عون
طائفة الدروز ، تاريخها وعقائدها	للدكتور محمد كامل حسين

دارالمعارف للطباعة والنشر والتوزيع

